أدونيس

كتاب الحصار



كِتابُ الحِصَار

(حزيران ٨٢ – حزيران ٨٥)

أدونيس

كِتابُ الحِصار

(حزيران ٨٢ حزيران ٨٥)

دار الآداب

الطبعة الأولى
١٩٨٥
الطبعة الثانية
١٩٩٦

الوقت

حاضِناً سنبلةَ الوقت وراسي برجُ نارٍ:
ما الدّمُ الضّاربُ في الرّملِ، وما هذا الأفولُ؟
قُلْ لَنا، يا لَهَبَ الحاضِرِ، ماذا سنقولُ؟

مِزَقُ التّاريخِ في حنجرتي
وعلى وجهي أماراتُ الضّحيّه
ما أمَرَّ اللّغة الآنَ وما أضيقَ بابَ الأبجديّة.

حاضِناً سنبلةَ الوقتِ وراسي برجُ نارٍ:
. . . /أصديقٌ صار جلّاداً؟ أجارٌ

قالَ: ما أبْطأَ هولاكو؟ مَنِ الطّارِقُ؟ جابٍ؟
أَعْطِه الجِزْيَةَ . . أشكالُ نساءٍ
ورجالٍ . . . صورٌ تمشي / أشرْنا
وتسارَرْنا ، ـ خُطانا
خيطُ قتْلٍ /
أتُرى قتلُكَ مِن ربّك آتٍ
أم تُرَى ربُّكَ مِن قتلكَ آتٍ؟
ـ ضيّعَتْهُ الأحجيةْ
فانحنى قوساً من الرُّعْبِ على أيّامِهِ المُنْحَنيه .

ـ لي أخٌ ضاعَ ، أبٌ جُنَّ ، وأطفاليَ ماتوا
مَن أُرَجّي؟ هل أضمّ البابَ؟ هل أشكو إلى سَجّادةٍ؟
ـ داخَ ، هاتِ الحُقَّ وامْنَحْهُ الشّفاءْ
مِن عطوسِ الفقهاءْ .

جُثَثٌ يقرؤها القاتِلُ كالطُّرْفَةِ / أهْراءُ عِظامٍ ،
رأسُ طِفْلٍ هذه الكتلةُ ، أم قطعة فَحْمٍ ؟

جسَدٌ هذا الذي أشهد أم هيكلُ طينٍ؟
انحني، أرتقُ عينينِ، وأرفو خاصِره
ربّما يُسعفني الظنّ ويهديني ضياء الذّاكره
غيرَ أنّي عبثاً أسْتقرىء الخيطَ النَّحيلْ
عبثاً أجمع رأساً وذراعين وساقينِ، لكيْ
أكتشفَ الشّخصَ القتيلْ

- لِمن النَملةُ تُعطي درسَها؟
ولِمَ الدَّهْشَةُ؟ شِعْرٌ
مَزْجُ هذا الشّرَر الفاجعِ بالعين، انْخِطافٌ
أن ترى بيتكَ مرفوعاً إلى اللّه شظايا. -
صَرختْ بُومة عرّافٍ على مئذنةٍ
نَسجت مِن صوتِها قوسَ قُزَحْ
وَبكَتْ مخنوقةً حتّى الفَرَحْ.

حاضِناً سنبلة الوقت ورأسي برجُ نارٍ:

. . . / كَشَفَ البهلولُ عن أسرارِهِ

أنَّ هذا الزَّمَنَ الثَّائرَ دُكَّانُ حِليٍّ،

أنه مُسْتَنْقَعٌ مِنْ أنبياءْ.

كشفَ البهلولُ عن أَسْرارِهِ

سيكونُ الصِّدقُ موتاً

ويكون الموتُ خُبْزَ الشُّعراءْ

والذي سُمِّي أو صارَ الوطَنْ

ليس إلَّا زمناً يطفو على وجه الزَّمَنْ.

كشفَ البهلولُ عن أسرارِهِ

أين مفتاحكِ يا أبّهَةَ الطّوفانِ؟ لُطْفاً أغْرقيني

وخُذي آخرَ شُطآني خُذيني

سَحرتْني لُجّةٌ لاهبةٌ

سَحرتْني قَشّةٌ تحترقُ

سَحرتْني طرقٌ تجفل منها الطُّرقُ

حاضِناً سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ:
نَسيتْ نفسيَ أشياء هَواها
نسيت ميراثَها المكنون في بيت الصُّوَرْ
لم تعـد تذكـر ما تلفـظه الأمـطارُ، مـا يكتبـه حبـر الشّجرْ،
لم تعد ترسُم إلاّ
نَوْرَساً يقذفه الموجُ إلى حَبْلِ سَفينهْ
لم تعد تسمع إلاّ
مَعْدناً يَصرخُ: ها صَدْرُ المدينَهْ
قَمرٌ يَنْشَقُّ مربوطاً إلى سُرّةِ
غُولٍ مِن شَرَرْ
لم تعـد تعرف أنَّ اللّهَ والشّـاعر طفـلان ينامـان عـلى خَـدِّ الحَجَرْ.

نَسيت نفسيَ أشياءَ هواها
ولذا يُرعبني الظلُّ ـ الغدُ المُرتسِمُ
ولذا يملؤني الرّيبُ ويَسْتعصي عليَّ الحلمُ
مُوثَقاً أركض من نارٍ لنارٍ
غصتُ تحت العَرقِ الدّافقِ من جسمي، وقاسَمْتُ الجدارْ
أرَقَ اللّيلِ / (خُطَى اللّيلِ وحوشٌ. . .)
ومِراراً قلتُ للشعر الذي يرسب في ذاكرتي:
أيُّ مِنشارٍ على عُنْقيَ، يُمْلي
آيةَ الصّمت؟ لمن أروي رمادي؟
وأنا أجهل أن أنتزِعَ النَّبضَ وأرميهِ على طاولةٍ
وأنا أرفض أن أجعلَ من حزْنيَ طبلاً للسّماءْ،
فَلأَقلْ: كانت حياتي
بيتَ أشباحٍ وطاحونَ هَوَاءْ

حاضِناً سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ :
شَجرُ الحبّ بقصّابينَ آخى
شَجَرَ الموتِ ببيروتٍ، وهذي
غابَةُ الآسِ تُؤاسي
غابةَ النَّفْي، ـ كما تدخلُ قَصّابينُ في خارطةِ
العشْب، وتَسْتَقْطِرُ أحشاءَ السّهولْ
دخلت بيروت في خارطةِ الموتِ / قبورٌ
كالبساتينِ وأشلاءٌ ـ حقولْ
ما الذي يسكب قصّابينَ في صيدا، وفي صورٍ،
وبيروتُ التي تَنسكبُ؟
ما الذي، في بعدِه، يقتربُ؟
ما الذي يمزجُ في خارطتي هذي الدِّماءْ؟

. . . يبسَ الصّيفُ ولم يأتِ الخريفْ
والرَّبيعُ اسْوَدَّ في ذاكرة الأرض / الشّتاءْ
مثلما يرسمه الموتُ : احتضارٌ أو نزيفْ
زمنٌ يخرج من قارورة الجَبْرِ ومِن كفِّ القضاءْ
زمنُ التّيه الذي يَرْتَجل الوقتَ ويجترّ الهواءْ،

كيفَ، من أينَ لكم أن تعرفوهْ؟
قاتِلٌ ليس له وجْهٌ / له كلُّ الوجوهْ. . .

حاضِناً سنبلةَ الوقْتِ، وراسي برجُ نارٍ:
مُنْهكٌ أَلْتفتُ الآنَ وأَسْتشرفُ ـ ما تِلك الخِرَقْ؟
أتواريخُ؟ أبلدانٌ؟ أراياتٌ على جُرْفِ الغسَقْ؟

هُوذا أقْرأ في اللّحظةِ اجيالاً وفي الجُثّةِ آلاف الجُثَثْ
هوذا يغمرني لُجُّ العَبَثْ،
جسدي يُفْلِتُ من سَيْطرتي
لم يعد وجهيَ في مِرْآتِهِ
ودمي يَنْفُرُ من شَرْيانِهِ. .
أَلِأنّي لا أرى الضّوءَ الذي يَنقل أحلامي إليهْ؟
أَلِأنّي طَرَفٌ أقْصى من الكون الذي بارَكَهُ غيري وجَدّفْتُ
عليهْ ؟
ما الذي يَجْتثُّ أعماقي ويمضي

بين أدغالٍ من الرّغبة، بلدانٍ ـ محيطاتِ دموعٍ
وسلالاتِ رموزٍ؟

بين أعْراقٍ وأجناسٍ ـ عصورٍ وشعوبٍ ؟
ما الذي يفصلُ عن نفسيَ نَفْسي؟
ما الذي يَنقضُني؟
أأنا مُفْترقٌ
وطريقي لم تعدْ، في لحظة الكشفِ، طريقي؟
أأنــا أكـثر من شخصٍ، وتــاريخيَ مَهْـوايَ، وميعــادي حريقي؟
ما الذي يصعدُ في قَهْقَهَةٍ تصعدُ من أعضائيَ المختنقه؟

أأنا أكثرُ من شَخْصٍ وكلٌّ
يسأل الآخرَ: مَن أنتَ؟ ومِن أينَ؟
أأعضائيَ غابات قتالٍ
. . . في دمٍ ريحٍ وجسمٍ وَرَقَهْ؟

أجُنونٌ؟ مَنْ أنا في هذه الظُّلمة ؟ علِّمني وأرْشِدْنيَ
يا هذا الجنونْ

مَنْ أنا يا أصدقائي ؟ أيّها الرّاؤون والمُسْتَضْعفونْ

ليتني أقدر أن أخرجَ من جلديَ لا أعرفُ مَنْ كنتُ،
ولا مَن سأكونْ،
إنّني أبحث عن إسْمٍ وعن شيءٍ أسمّيهِ،
ولا شيءَ يُسمّى
زمنٌ أعمى وتاريخٌ مُعمّى
زَمَنٌ طَمْيٌ وتاريخٌ حطامْ
والذي يملكُ مملوكٌ، فسبحانَكَ يا هذا الظَّلامْ.

حاضِناً سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ:
جَدّي السّاميّ مأخوذٌ بما ينسلهُ الدّهرُ العَماءْ
بَبّغاءٌ؟ أم نبيٌّ مُفْرَغٌ في مومياءْ؟
أيّها الجدُّ الذي أعتزل الآنَ طريقَهْ
حسناً، أنتَ الذي يسكن في جرثومة الماء وأطْباقِ السّماءْ
ومِنَ الحكمةِ أن تمشي، كما تَمْشي، شموخاً للوراءْ
وَلأنْتَ السرُّ والمملكةُ المكتنِزَهْ

بالنبوّات ـ أنا العاجزُ عن فهمكَ، والسّادِرُ في
الغيِّ ، وأنتَ المعجزهْ.
أيّها الجدّ الذي أرفضُه الآنَ وأحببتُ الخليقَهْ
باسْمِهِ الخالقِ، لن تعرفني بعدُ، ولن ينسبني شيءٌ إليكْ
غيرُ ذاك الطَّلَلِ الراسبِ في نَفْسيَ - يَبكيني، ويُبْكيني
عليكْ.

حاضِناً سنبلةَ الوقتِ ورأسي بُرْجُ نارٍ:
آخِرُ العَهْدِ الذي أمطَرَ سجّيلاً يُلاقي
أوّلَ العهد الذي يُمطر نفطاً
وإلّهُ النَّخْل، يجثو
لإلّهٍ من حديدٍ،
وأنا بين الإلّهينِ الدّمُ المسفوحُ والقافلةُ المنكفِئَهْ
أتقرّى ناريَ المنطفئه
وأرَى كيف أُداري
موتيَ الجامحَ في صحرائِه،
وأقول الكونُ ما ينسجهُ حُلْميَ. . /تَنْحلّ الخيوطْ
وأرى نفسيَ في مَهْوى وأَسْترسلُ في ليل الهبوطْ

وأرى الأشياءَ دولابَ دخانٍ
وأرى العالَمَ صَيْداً
مُدّتِ المائدةُ، ـ الأجسادُ بَقْلٌ
والمواعينُ رؤوسٌ.
يجلسُ اللّه إلى مائدة الصَّيْدِ، غزالٌ
كان خبّازاً، وضَبٌّ
كان جندياً / إِلَهٌ
يأكل الصَّيْدَ، أم الصَّيْدُ الإِلَهْ؟
طُرقٌ تكذبُ، شُطآنٌ تخونُ
كيف لا يصعقكَ الآن الجنونُ؟
هكذا أَنْتبِذُ الآكِلَ والأكْلَ وأرتاحُ إلى كلِّ مَتاهْ
وعَزائي أنّي أُوغِلُ في حلميَ، ـ أَشْتَطُّ، أموجْ
وأُغنّي شهوة الرّفض، وأهْذي
فَلَكُ الزُّهرة خلخالٌ لِأيامِيَ، والجَدْيُ سِوارٌ
وأقول الزَّهر في تيجانِهِ
شُرُفاتٌ...

وعَزائي أنّني أخرجُ ـ أسْتَنْفِرُ أفْعال الخُروجْ.

أسْرِجوا هذي الرّياحَ الجامِحَهْ
إنّه التاريخ مذبوحٌ وليس الذّبح إلا الفاتِحه
واتركوا الذّابح والمذبوحَ والذُّبْحَ شُهوداً
واغمروني ببقاياهُ ارْسُموني
طَلَلاً بين الطّلولْ

هكذا أعترف الحكمةَ مِنْ مَعْدنها
صارِخاً أهْلاً بأنقاضيَ أهلاً بالأفولْ.
وغداً يُطفئني الموت ولا أنْطفىءُ
وغداً أخرج من ضوءٍ إلى ضوءٍ سِواهْ
وَصحيحٌ أنّني أوْهَنُ من خَيْطٍ ولكنّيَ أسْمى من إلَهْ

هكذا أبتدىءُ

حاضِناً أرضي وأسرارَ هَواها،ـ

جَسَدٌ البحر لها حبٌّ له الشّمسُ يَدانْ

جَسَدٌ مُستودَعُ الرَّعْدِ ومَرْساة الحنانْ

جسدٌ وَعْدٌ أنا الغائب فيهِ

وأنا الطّالِعُ مِن هذا الرّهانْ

جَسَدٌ / غطّوا بضوء المطر العاشِق وَجْهَ الأقحوانْ،

وَلْيكنْ. . .

احتضنُ العصرَ الذي يأتي وأمْشي

جامِحاً، مِشْيةَ رُبّانٍ، وأختطّ بِلادي، ـ

إصْعدوا فيها إلى أعلى ذُراها

اهْبطوا فيها إلى أغْوارِها

لن تروا خوفاً ولا قيداً ـ كأنّ الطّيرَ غُصْنٌ

وكأنّ الأرضَ طِفْلٌ، والأساطيرَ نِساءٌ

حُلُمٌ؟

أُعطي لمن يأتون مِن بَعديَ أن يفتحوا هذا الفضاءْ.

ليس جلدي كوخَ أفكارٍ، ولا
شَغَفي حَطّابَ ذِكْرى،ـ
نَسَبي رفضٌ وأعراسي لِقاحٌ
بين قُطْبين، وهذا العَصرُ عصري
الإلَهُ الميتُ، والآلةُ عمياءَ، وعَضْري
أنّني أسكن حَوْضَ الرّغباتْ
أنَّ أشلائيَ أزهاري، وأنّي
أِلفُ الماءِ وياءُ النّار ـ مجنونُ الحياةْ.

كاشِفاً للوقتِ أسرارَ هَواهُ:
هكذا يعترفُ
إنّه الضِّلّيلُ، والخارِجُ، والمختلِفُ.

(بيروت، ٤ حزيران ـ ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٢)

صحراء ، I

أَلمدائِنُ تَنحلُّ، والأرض قاطِرةٌ مِنْ هَباءٍ، ـ
وَحدهُ الشعر، يعرفُ أن يتزوّجَ هذا الفضاءْ.

لا طريقَ إلى بيتِه، حِصارْ
والشّوارع جَبّانَةٌ؛
مِن بعيدٍ، على بيتِه
قمرٌ ذاهِلٌ يتدلّى
في خيوط الغبارْ.

قلتُ: هذا طريقي إلى بيتِنا، قال: كلاّ
لن تمرَّ، وسدَّدَ نحوي رصَاصاتِهِ،-
حسناً، لِيَ في كلّ حيٍّ
رِفْقةٌ، لي بيوتٌ...

طُرقٌ للدِّماءْ -

ألدّماءِ التي كان طِفلٌ يُحدّث عنها
وَيُوشوش أصحابَهُ:
لم يعد في السّماءْ
غيرُ بعض الثقوب التي سُمّيت أنجماً...

كانَ صوتُ المدينةِ ألطفَ من أن تشدَّ الرِّياحْ
حَبْلَ أوتارِه،ـ
كانَ وجهُ المدينةِ يَزهو
مثلَ طِفْلٍ يُهيِّء للّيلِ أحلامَهُ
ويقدِّم كرسيَّهُ للصَّباحْ.

وجدوا أشخاصاً في أكياسٍ :
شخصٌ لا رأسَ لَهُ
شخْصٌ دونَ يدينِ، ودونَ لسانٍ
شخصٌ مخنوقٌ
والباقونَ بلا هيئاتٍ وبلا أسْماءْ
ـ أجُنِنْتَ ؟ رجاءْ
لا تكتبْ عن هذي الأشياءْ.

صفحةٌ من كتابٍ
تَتمرْأى قنابِلُ فيها
تَتمرْأى النّبوّاتُ والحِكَمُ الغابِرَه
تَتمرْأى محاريبُ، ـ سَجّادةٌ مِن حروفٍ
تتساقَطُ خيطاً فخيطاً
فوق وجه المدينةِ، من إبَرِ الذّاكرهْ.

قاتِلٌ في هَواء المدينةِ، يَسبح في جُرْحِها، ـ
جُرحها سَقْطَةٌ
زَلْزَلَت باسْمِها ـ بنزيفِ اسْمِها
كلَّ ما حولَنا
البُيوتُ تغادر جُدرانَها
وأنا لا أنا.

رُبّما جاءَ وَقتٌ ستُقْبَلُ فيهِ
أن تعيشَ أَصَمَّ وأبكَمَ، لكن
رُبّما سمحوا أن تُتَمْتِمَ: مَوتٌ
وحياةٌ
وبعثٌ،
والسّلامُ عليكم . . .

مِن نبيذِ النّخيلِ إلى هداةِ الصّحارى . . . إلى آخِرِهْ
مِن صباحٍ يُهرّب أحشاءَهُ
وينامُ على جُثَثِ الثّائرينَ . . . إلخ*،
من شوارِعَ، من شاحناتٍ
للجنودِ، الحشودِ . . . إلخ،
من ظلالٍ رجالٍ نساءٍ . . . إلخ،
من قنابِلَ محشوّةٍ بدعاءِ الحنيفين والكافرينَ . . . إلخ،

---

* تقرأ بلفظها الكامل، كما هي واردةً في السطر الأوّل.

مِن حديدٍ ينزّ حديداً وينزف لحماً. . . إلخ ،
مِن حقولٍ تحنّ إلى القَمْحِ والعشب والعاملينَ. . . إلخ،
مِن قِلاعٍ تُسوّر أجسادَنا
وتُهيل علينا الظّلامَ. . . إلخ ،
مِن خرافاتِ مَوْتى تقول الحياة، تقود الحياةَ. . إلخ ،
مِن كلامٍ هو الذَّبْحُ ، والذِّبْحُ ، والذّابحونَ. . . إلخ ،
مِن ظلامٍ ظلامٍ ظلامٍ
أتنفّسُ، ألمس جسميَ - أبْحَثُ عنّي
وعنكَ، وعنه، وعن غيرنا،

وأُعلّق موتي
بين وجهي وهذا الكلام - النّزيفِ. . . إلخ .

سوف ترى، ـ
قُل اسْمَهُ
أو قُل رسمتُ وجهَهُ
مُدّ يديكَ نحوه
أو ابتسِمْ،
أو قلْ فرحتُ مرّةً
أو قُلْ حزنتُ مرّةً،
سوف تَرى:
ليس هناكَ وطنٌ . . .

غيّر القتلُ شَكْلَ المدينة ـ هذا الحجَرْ
رأسُ طِفْلٍ ـ
وهذا الدُّخانُ زفيرُ البَشَرْ.

كلُّ شيءٍ يُرتّل منفاهُ / بَحْرٌ
من دماءٍ ـ وماذا
تتوقّعُ هذي الصّباحاتُ غيرَ شرايينها المبحرهْ
في السديم، وفي لُجّةٍ منجزرهْ؟

سامِروها، أطيلوا السّمَرْ
إنّها تُجلسُ الموتَ في حضنِها
وتقلّبُ أيّامَها
وَرَقاً شائخاً، ـ
احفظوا آخرَ الصُّوَرْ
من تضاريسها
إنّها تتقلّبُ في رَمْلِها
في محيطٍ من الشَّرَرْ
وعلى جسمِها
بُقَعٌ من أنينِ البَشَرْ.

بِذْرَةً بِذْرَةً، تتناثَرُ في أرضِنا
فاحفظي سِرَّ هذي الدِّماءْ
يا حقولاً تُغذّي أساطيرَنا، ـ
أتحدَّث عن نكهةٍ في الفصولِ
وعن بارقٍ في الفضاءْ.

ساحةُ البُرجِ ـ (نقشٌ يوشوش أسرارَهُ
لقناطرَ مكسورةٍ. . .)
سَاحةُ البرج ـ (ذكرى تفتّش عن حالها
في غبارٍ ونارٍ. . .)
ساحةُ البرج ـ (صحراءُ مفتوحةٌ
تصطفيها الرياحُ، وتجترّها. . .)
ساحةُ البرج ـ (سِحرٌ
أن ترى جُثثاً تتحرك / أطرافُها
في زقاق، وأشباحُها
في زقاقٍ / وتسمع آهاتها. . .)

ساحةُ البرج - (غربٌ وشرقٌ
والمشانق منصوبةٌ،-
شهداءُ، وصايا . .)
ساحةُ البرج - (حشدٌ
مِن قوافِلَ: مُرٌّ
ولبانٌ ومِسْكٌ
والبهاراتُ تفْتَتِحُ المهرجانْ . . .)
ساحةُ البرج - (حشدٌ
من قوافِلِ: رعدٌ
وانفجارٌ، وبَرْقٌ
والأعاصيرُ تفتَتِحُ المهرجان . . .)

ساحةُ البرج - (أرّخْتُ هذا الزمانْ
بِاسْم هذا المكانْ).

ـ جُثَثٌ أو حُطامْ
وجْهُ بيروتَ؟

ـ هذا
جَرَسٌ، أمْ صراخٌ؟

ـ صديقٌ؟
ـ أنْتَ؟ أهْلاً.
أسَافرتَ؟ عُدْتَ؟ جديدُكَ؟
ـ جارٌ لنا قتلُوه . . . /

. . . .

لَعِبٌ/
ـ نَرْدُكَ اليومَ أقْوى،
ـ مُصَادَفَةٌ/

. . . .

ظُلُماتٌ
والكلامُ يَجُرُّ الكلامْ.

ضوء الشمعة

طولَ سنوات الحرب الأهليّة، خصوصاً في أيّام الحصار،
تعلّمتُ أن أقيمَ علاقاتٍ ودّية مع الظّلمة، وأن
أعاشر ضوءاً آخر، لا يجيء من الكهرباء، وليس
ضوءَ المصباح الغازيّ أو مصباح الكاز.

أكره هذين المصباحين،
ينفثان رائحةً تقتل حاسّة الشمّ؛ تسمّم طفولةَ
الهواء وهواءَ الطفولة. ويطاردان العيون بنوعٍ من
الأشعة تنغرز في البصر كأنّها الإبر.

فوق ذلك، يذكّران بالنفط العربي الذي حوّل
الحياة العربية إلى تيهٍ من الظلام.

ذلك الضوءالآخر هو ضوء الشمعة.

في نفسي الآن ما يدفعني إلى التساؤل: أكانت هذه المعاشرة التي أردتها اختياراً، تعبّر عن احتفائي بالذاكرة أو عن رغبة في هذا الاحتفاء؟ أكانت نوعاً من استعادة الشعر الآخر الذي تركته لنا أعمال أسلافنا إلى جانب الشعر الذي تركته لنا عقولهم؟ أم لعلها كانت تعبيراً عن اللهفة إلى مزيد من الالتصاق بجسد الأبجدية، كما كان يتخيله، ويتعاركُ معه، ويخلقه، ذلك الفينيقيّ الآثِم الذي ابتكرها. أقول: الآثم، وأسأله، عبرَ هذه المسافة التي تفصلنا وتوحّدنا في آن: لماذا لم تتركنا نكتب بجسد الأشياء ذاتها، بدلاً من هذه الحروف الضاربة في التجريد العقلي؟ ألم تكن ثقافة المادة التي هي في مستوى الطبيعة أقرب إلى الإنسان، وأجدى، وأكثر تعبيراً عنه، من ثقافة الرمز والإشارة؟ وهل تقدر أيها الآثم الأول، بعدما أحدثه أبناؤك وأحفادك في مدينتك الأولى، بيروت، أن تؤكد أن الكاتب الذي يخطّ

الحـروف والكلمات ويكتبهـا، أكثر تعقـلاً وفهماً من الناطق الذي يُغَنّيها أو يُجريها بين شفتيه أصواتاً؟ وها أنتَ ترى كيف أن الأول يجعل من العالم كله مستنقعاً للضجيج يلوِّث كل شيء، وكيف أن الثاني يُحوّله إلى أوتار تخرج منها موسيقى، تتمازج فيها الأصوات الصاعدة من حناجر الطبيعة.

أقول: اخترت أن أعـاشرَ ضوء الشمعة. لم أعنَ، بادىء الأمر، بلون الثوب الذي تلبسه الشمعة. كـان إجمالاً، أزرقَ سماوياً. في أية حال، لم يكن لـدي إمكـان لاختيـار مـا أريـد من ألـوان، فقـد كـان اختيـاري محكوماً بما يُعرض عليّ، وكان ما يُعرض عليّ محكوماً بالوقت والحالة.

شمعة بشوب أزرق سماوي. . . كانت تعيدني، مع ذلك، إلى ما يذكّر بحياة الكهف، الكهف الذي يعيدنا إلى الاختبار المعرفي الأول، ذلك أنه يربطنا بالرّحم المعرفية الأولى: الخروج من ليل العالم إلى نهاره، من الظل الذي تحدّث عنه أفلاطون إلى النور الساطع، من الوهم إلى الحق.

لكن، هل خرجنا حقاً؟ كنت أتساءل فيما أراقبُ الظل الذي تتركه الشمعة على أرض المكان أو على جداره، والظل الذي يتركه رأسي. وكان يُخيّل إليّ، ربما بشيءمن الالتباس، أن هذا الظل الذي نضفي عليه صفة الوهم، ليس أقل حقيقية مني أو من الشمعة. وكنت أقول، فيما أرى الموت يأخذ بعضنا بلمحة، لا نزال نُدير ظهورنا للشمس. وقد يكون أفلاطون أوّل من أخطأ، وأسس للخطأ، في ما يفصل بين الظل والنّور، الوهم والحقيقة، وفي ما يسوّغ أن نُسمّي هذا الشيء وهماً، وذلك الشيء

حقيقة، وفي ما يعطينا حق التوكيد: أين تبدأ حدود الوهم، وأين تبدأ حدود الحقيقة، وكيف، ومتى؟

شمعة بثوب أزرق سماوي . . .

كان بعضنا يحسب أن هذا الذي يظنه «النور» أو «الحق» وفقاً لما يرى أفلاطون، ليس إلا صعوداً في سلم الكهرباء، وأن الأكثر صعوداً هو الأكثر جدارة بأن يتخذ من أية نجمة يراها، كرسياً يجلس عليه أو حديقة يَتنزّهُ فيها. لهذا كانوا ينظرون إلى الشمعة وضوئها بنوع من الاستخفاف يصل أحياناً إلى الازدراء.

كنتُ، مع قلة، مأخوذاً بالهبوط، على العكس، في الظل، في هذا الليل الشفاف الذي يتعانق فيه

الوضوح والغموض، ويتحركان في موجة واحدة. كنا نقول إن الوهم أو ما نسميه الوهم ليس إلا حقاً لم يستنفده البصر (أي البصيرة والباصرة) بعد، وأن ما نسميه الحق ليس إلاّ وهماً استنفدناه. وكنا نقول: الحالة الطبيعية للشيء هي الظل، والنور حالته العابرة. إذ لو تحوّل العالم كله إلى نور، أو إلى نور كهربائي، لفقد هذا العالمُ أسرارَه، ولفقد جماله وجاذبيته. لهذا كنتُ من جهة الظل، وكنتُ تبعاً لذلك، الى جهة الشمعة، بينما كان بعضنا إلى جانب النور الكهربائي الساطع. وكان يزيد في حماستهم له، أنهم كانوا يرون في الكهرباء حفيدة لطاقة فينيقية ظهرت مرة لكي تمارس فعلها، لكنّها اختفت، لأسباب عديدة، لكي تظهر بشكل آخر غير فينيقي، في مكان آخر.

تتمثل هذه الطاقة رمزياً (لعل الأصح أن نقول: تتمثل

أسطورياً) في امرأة لبنانية ـ يونانية أو سورية ـ إغريقية، (إذا كنا حريصين على احترام تاريخية الأسطورة) اسمها اليكترا. واليكترا هي أخت لقدموس (الفينيقي) الذي حمل الأبجدية إلى الغرب (اليوناني، بخاصة)، وبنت لأطلس الذي يحمل على كتفيه السماء، وابنة لأخت بروموثيوس الذي اختطف النار من الآلهة وأعطاها لبني الإنسان. ومن قدموس انحدر طاليس، أول من درّس في المعابد الفرعونية، خصائص الضوء (لعل الأصح أن نقول: خصائص الكهرباء)، الكامنة في العنبر الأصفر، الذي تُصنَع منه، للمناسبة، أجمل المسابح وأثمنُها.

نذكّر هنا الذين يكرهون المسابح، ويحبون الكهرباء بشيء ربما يجهلونه أو لا ينتبهون إليه هو أننا نقدرُ بالمسبحة وحدها، أن نلامس الكهرباء: هذا الجسد العنبري الذي يحتكّ به جسدنا دون أن يُصعق ـ وذلك

بفضل الظل، هذا الليل الشفاف الذي يلبسُ الجسد العنبري، ويلبسه هذا الجسد. وما أعمق المتعة التي تحظى بها، أيها القارىء، حين يُتاح لك أن تصغي إلى سمير الصايغ يتحدث عن هذا الجسد العنبري المتكهرب، أو تلك الكهرباء المتجسدة في العنبر. ذلك أنه حين يتحدث عنها، فيما يتفحصها ويمرّر عليها أطراف أصابعه، أو يمرّرها بين أطراف شفتيه، تشعر كأنّ غيوماً أخذت تتجمّع، وأن برقاً يكاد أن ينفجر ويغمر المكان.

وطاليس هو نفسه رمز أول للتفاعل بين الحساسية الفينيقية - الفرعونية، والحساسية الإغريقية وقد قرأت، استطراداً، من يقول في ما يشبه الجزم أن طاليس هو أوّل من تنبأ، سنة ٦١٠ قبل الميلاد، بكسوف الشمس.

كنت، في ضوء الشمعة، أستعيد هذا التاريخ الأسطوري، وكنت أقارنه بالتاريخ الحي الذي نعيشه لحظة لحظة، ويكتبه بالنار والحديد، بالصواريخ والقنابل، بالأشلاء البشرية، أبناء عمومتنا، أحفاد موسى وسليمان ـ وهما من أنبيائنا المشتركين ـ وكانت لهذا الثاني، فيما يرويه تراثه النبوي، دروب سرية للكلام مع الأشياء الجامدة في الطبيعة، ومع كائناتها الحية، وكانت للأول تلك الحُظوة المفردة: الله نفسه كلمه، ومن هنا سُمّي كليم الله.

قلت: كنت أقارن بين ذلك التاريخ الأسطوري ـ الوثني، وهذا التاريخ الواقعي ـ الإلّهي الذي نعيشه يومياً، وألاحظ دون أن أخفي دهشتي:

هوذا إنسان لم يكلّم الله ولم يعرفه، ولم يُتح له أن يستضيء إلا بشمعة ـ ربما لم يسعفها الحظ حتى في أن تلبس ثوباً أزرق سماوياً، لكنه، مع ذلك،

يعرف أن يخلق تاريخاً يرقى بالإنسان والعالم ويفتح أمامهما آفاقاً لتقدّم بلا نهاية.

وها هو إنسان آخر كلّمه الله وآثره على الخلق جميعاً، والكهرباء كلها خاضعة له كأنها ناقةٌ تجثو أمامه، لكنه معَ ذلك يبدو كأنّه يخلق تاريخه بدءاً من قتل الإنسان والهبوط في هاوية بلا نهاية من جحيم الأشلاء والدماء.

كنت، فيما أقارن وأستنتج، أحتضن ظلّ الشمعة النحيل، وأوشوشه بعض أسراري. ثم ألتفت نحو المتوسط مصغياً إليه يهدر غير بعيد عن أجسادنا شبه الجامدة من الحيرة والرعب، أو من الموت الذي قد يصعقنا بين هنيهة وهنيهة، ألتفت وأشاركه ـ هو

الـذي ابتكر ضـوء العالم ـ نشيجـه المتمـوج في محيط الظلام.

إنـه الحصـار: طـوفـان ـ لكن أين السفينـة، وإلى أين نخـرج؟ ولا شيء ينتظرنـا غير ذلـك الشبـح الآلي ـ «الفانتوم» الـذي يعمـل عـلى تحويلنـا إلى رماد ذهبي يصنع منه الجائحون من أبناء عمومتنا، أحفاد مـوسى وسليمان، تيجانهم وعروشهم الجديدة.

كنـا كلّما شطح بنـا الخيـال، يمسـك بنـا ضـوء الشمعـة، ويردّنا ظلهـا الى اللحظة الـواقعية الحيـة. هكذا، نفيء إلى نفوسنا، ونرجع إلى ظلها المحاصر.

كـان بعضنـا، في هـذه العـودة، يفتـح كتـابـاً مـا، لكي

يستوهم حالة أخرى، أكثر منه لكي يقرأ، خصوصاً أن بعضنا كان يمضي بعيداً في نقد القراءة: كيف تمكن القراءة وأنت جالس في الكتاب ذاته الذي تقرؤه، أو تتحرك في كل سطر منه؟ كيف يمكن أن تقرأ وأنت نفسك المكتوب - المقروء؟

أمّا أنا فكنت أعاشر أشياء أخرى. أتوهم أن للشمعة أمامي طريقاً سلكته بالوراثة. بدأته جدة عريقة، وتابعته بعدها حفيداتها وأبناء الحفيدات. وكنت أتوهم أنني أرى الزوايا التي أقامت فيها والأشخاص الذين عشقوها فيما كانت تحترق بين أيديهم. وكثيرا ما خيل إلي أنني أسمع أبا نواس يقارن بين ضوئها وضوء الخمرة التي يتناولها. (الخمرة هي أيضاً جسد كهربائي والفرق بينها وبين العنبر، أن جسد الأولى سائل وجسد العنبر جامد). وكثيراً ما خيّل إليّ أنني أشاهد أبا تمام يتقلب على فراشه في ضوء شمعةٍ شاحبة، وقد احمرّت عيناه، وعبثاًيحاول النوم لأن في

أعضائه ناراً تأكله. وكثيراً ما شُبِّه لي أن ضوء الشمعة لا يغري صعاليك الشعر الآخرين وأنهم يؤثرون عليه، في هذه الصحراء من البشر، ضوء النجوم. وأحياناً يتراءى لي المتصوِّفون، وأتصور أنني أكاد أن ألمس حنين بعضهم إلى أن يذوب في الله كما تذوب الشمعة أمام عينيه.

لا يكشف ضوء الشمعة الغطاء عن الغائب وحده في الماضي أوالحاضر؛ يكشف كذلك الغطاء عن الوجوه التي تسهر معك حول جسدها الذي ترى اليه يذوب نقطة نقطة. أو لعل ضوء الشمعةمناسبة تتيح الكشف، أكثر مما يكشف هو ذاته.

كانت الوجوه التي يسكن أصحابها في المبنى الذي نسكنه،

تتراكض وتتجمع حول ضوء الشمعة في سديم من التجاعيد والقسمات والملامح والأسارير والنظرات والتساؤلات:

وجهٌ بحيرةٌ راكدة ليس فيها أي تلويحة لأيّ شراع،
وجهٌ يبدو في الظل كوجه خروفٍ يقاد إلى الذبح،
وجهٌ غارقٌ في أحزانه كأنه ثقبٌ في الظلام،
وجهٌ صفحةٌ بيضاء مفتوحة على الصمت،
وجهٌ غربالٌ تنزل منه الكلمات وتتناثر في جميع الاتجاهات،
وجهٌ دفتر لا نقرأ فيه غيرَ النسيان، أو على الأصحّ إرادة النسيان،
وجهٌ امرأة هي في الواقع رجل،
وجهٌ رجلٌ هو في الواقع امرأة.

كان ضوء الشمعة يكشف الغطاء عن الشمعة ذاتها. إنها

سيدة الصمت، تحترق دون أن تتأوّه أو تستغيث.
وهي كـذلك من جهـة الليل عـلى الـرغم من أنها، ظاهرياً، من جهة النهار. صحيح أنها تضيء، لكن لا لكي تعمّم النهار، بل لكي تجعل الليل أكثر كثافة وأكثر حضوراً.

فالشمعة التي هي الضوء - سيّالاً، إنما هي ليل داخل الليـل، أو هي الليل باكياً، أو هي الليـل مـاسحـاً عينيـه بأطـراف نجمة بعيـدة، أو هي الليـل لابسـاً قميص الـنـوم، أو هي الـليـل وقـد استيقـظت شهوته...

وللشمعة سرير، لكن لا وسادة لها، ولا تنام... ربما لمـزيد من الغـوص في موج الليـل. ربما لمـزيـد من الالتصـاق بِغَوْرِ ذلـك الليـل الآخـر: المـوت. ربما لتعميق التأمل في ذلك العالم الخـارجي الذي يلتهب

ـ البيوت التي تتطاير في أثير السماوات، الأجساد التي تخترقها الشظايا، الأجواء المليئة بنثار اللحم والعظم، حيث تتداخل الأجساد الغريبة التي لا يعرف بعضها بعضاً، وتتعانق وتتآلف، الأصوات الصاعقة التي تنسج للأفق ثياباً من الرماد والجمر. . . أو ربما لكي نفهم ذلك الغبار الكوني الذي يحمل القيم والأخلاق، الفضائل والمثل، ويذروها، صانعاً منها ذلك الهباءالمبتذل، الذي يسمى مجد الحروب وانتصاراتها، أو ربما لكي نزداد قناعة أن ما سمي الإنسان هو في الحق، الحيوان الذي تَيَسَّر له أن يمشي، بخطأ طبيعي، على قدمين اثنتين. . .

مرّةً أخرى؛ يأخذنا ضوء الشمعة بعيداً، لنعدْ ـ
نعود إلى ضوء الداخل القريب ـ في تلك الغرفة السفلى

من المبنى، والتي سميناها ملجأ. هنا يتجسد الليل، حقاً. هو للمرأة، رجل. وهو للرجل، امرأة.

هكذا يصبح الزمن كله جزءاً من الليل، وفي معاشرته، نرى إلى الشهوة تقطر من أطرافه، ونرى إلى ساقيه كيف تنفتحان وتنطبقان في حركة لا يزيدها ضيق الملجأ إلا حيوية ورحابة. ونشعر أن القمر وأخواته النجوم نهر غير مرئي يرفد ضوء الداخل، فتشتعل منارات من طبيعة عجيبة، تكشف لنا عن علاقات من التآلف تجمع بين المتناقضات، وتوحد بين أشخاص لا يلتقون أبداً في أي مكان ولأيّ سبب.

كنا نصدّق، في مثل هذه الحالة، ما يروى عن بعض القدماء، الذين كانوا في لغة أجدادنا، أولياء ـ نصدق أن النور كان ينبع، في الليل، من أطرافهم

ورؤوسهم لكي يضيء ما حوله، ولكي يكون إشارة ما لتائهٍ ما.

وكـان بعضنا يتخـذ من هذ الحـالـة فـرصة لكي يكـرز بالفضائـل التي ينطوي عليهـا ضوء الـداخل. كـان يصفـه بأنـه لا ينطفيء، وبـأنـه ضوء يشـع لـوجـه الضوء، ناذراً نفسه لتبديد الظلمة. ثم يقارنـه ـ هو السجـين في ظلمات الملجـأ، بذلـك الضـوءالـطليق الـذي تنقله الصواريخ والقنابـل، فيؤكـد أن هـذا الأخير، على الرغم من أن أصحابه لا يلهجون إلا بـالحرية والتقدم، ليس إلا اسـماً آخر لـظلامٍ لا جد في الطبيعة نفسها ما يشبهه: ظـلام منذور لكي يطفيء النور، أياً كان، وأنّى وجد.

وكان يستطرد مؤكداً، وقد استأنس بصمت بعضنا، وقبول بعضنا الآخر لمـا يقولـه ـ أن ذلك الفـلاح الفرعـوني

الذي كان يكتب أوهامه وأحلامه على أوراق البرديّ، في ضوء شمعة نحيلة، أو أن ذلك البحار الفينيقي الذي كان يعيش صديقاً للموج وللشواطىء، أكثر غنى وعمقاً، في حساسيته الإنسانية وتطلعاته من هذا الإنسان الذي يفخر، اليوم، بأنه يمتطي الأشباح الآلية ويهدم، في لحظات، مدن البشر وقراهم وأكواخهم...

الشمعة النحيلة تكاد أن تنطفىء. حسناً تفعل. كأنها كرهت هي أيضاً ذلك الضوء الذي يخرج من القذائف والصواريخ التي تجثم في حنجرة بحرنا المتوسط، وتقطع حبالَها الصوتية التي امتزجت، مرة، بأبهى الأصوات التي غنّت لمجد الإنسان.

وأنت، هل ضجرت، يا صديقي القارىء من هذا القديم الضارب في أعماق التاريخ؟ لكن، ألا ترى كيف ينبجس الشعر مما يظن بعضنا أنه نقيض للشعر؟ ألا ترى كذلك أن هذا الذي نسميه واقعاً ليس إلا قشرة تتفتت، منذ أن تلامسها، وتفصح عمّا يختبىء وراءها: ذلك الواقع الدّفين الآخر، حيث الإنسان هو نفسه شعر الكون.

قلت الكون، لا لكي أهرب من هذا الملجأ الضيق، المعتم، بل لكي أحسن الإحاطة بما ينطوي عليه من رحابةٍ لا تحد، وبما يزخر به من ضوء الداخل.

عطرٌ متهوّر يهبط الدرجات المظلمة الى الملجأ، اتركوا الباب مفتوحاً، وإلا اختنقنا.

ليس ضوء الشمعة، كما يبدو لي في هـذا الملجأ، ضـوءاً، بل هو نوع من العتمة الأكثر قدرة عـلى الإضاءة من كل ضوء. ذلك أنها تضيء القلب، وتجعل الجوارح كلها تتوهـج بنور آخـر هو نـور الرغبـة في أن تعرف ذاتك وأن تمتلكها ـ وحـدها، ولا شيء إلّاهـا. هذه العتمة إضاءة سرّية تقتلعـك حتى من ظلك، وتلقي بـك في بُؤرةٍ من التفجّـر النّـورانيّ، وتشعـر ـ أنت المترابطُ المتحد، أنك المنفصل المنفرد. تشعر أنـك، دائـماً، في حالـة انـتظار، تـترقّبُ حـدثـاً مـا، لا في الخـارج، هذه المرّة، بل في داخلك، في أحشائك. تشعـر أنك في حـالةٍ يمكن أن يُقـال عنها إنها حـالـة الغيم: لا تعـرف هـل أنت داخـلٌ في المـطر، أم في الصحو. ولا يعود الظلام ظلاماً: يُصبح تـرقباً عـلى عتبة نور بـاطنٍ يكاد أن يـظهر. بـل يُصبح الكـلامُ عـلى ضوء الـظلمة ممكنـاً، كما هي الحـال في إمكان الكلام على ظلمة الضوء.

هكذا كانت الشمعة تردّني إلى ليل المعنى - الى الانصهار في الكلّ الغامض. ليل المعنى، - أرى، فيما وراء شُرفاته، بيتنا الأول - الطفولة الأولى، وأستشِفُّ القنديل الذي كنتُ ألجأ بين يديه، مستسلماً لأهواء جسدي. وأستعيدُ بعضَ هواياتي: كنت، حين تجيء ساعةُ النوم، لا أضع بين التراب وجسدي إلا بساطاً من الصوف - أجملَ فراشٍ للجسد الذي يتكونُ من هباء الضوء وأثير الحلم. أحياناً، كنت أكتفي بحصير من القصب اللين.

هكذا نَمَتْ كهرباءُ الحياةِ في أعضائي.
وكانت إليكترا تتلطّف وتمضي معي جزءاً من وقتها.
وكان أصدقائي الشعراء يجلسون إلى جانبي، أصغي إليهم يتحدّثون عن طاقات أخرى لا تتّسع لها هذه الأنابيبُ الكهربائية المتمدّنة.

ليسل المعنى، ـ كنت أحسّ بجسدي يتمدد في شرارٍ،
سأحاول أن أترجم لك،أيها الجسد الآخر الصديق،
ما تبقى منه في ذاكرتي،

أ ـ كنت أنامُ وحيداً،
خوفاً من أن تهجرني الوحدة،

ب ـ لا يمكن الانتهاء من تجميل العالم
لأنه حينذاك، ينتهي.

ج ـ لا شيء يريدني،
ذلك أنني أريد كلّ شيء.

د ـ الموت قريبٌ
لأنه فكرة لا جسد،
والحبُّ بعيدٌ
لأنه جسدٌ لا فكرة.

هـ ـ جبلٌ مسقُوفٌ بالضّباب:
رجلٌ يُغامِر.
غابةٌ مسقوفةٌ بالضّباب:
امرأة تحلم.

و ـ الحلم شاطىءٌ
لسفينةٍ لا ترسي،
مع ذلك أنتمي إلى الحلم.
ز ـ طهِّر ذاكِرَتَك
من كل لحظة لم تعرف أن تستقْبِلَك.
ح ـ لم تردّ هذه الشجرة تحيتي،
ألأني حيّيتُ الرِّيح، قبلها؟
ط ـ حزني يلبس الليلَ،
وليس له ثوبٌ في النهار.
ي ـ الطريق رمزُ السعادة
ذلك أنّها عبورٌ دائم.
ك ـ الماء عاشقٌ أبديّ
لسبب واحد:
لا يعرف الفشل.
ل ـ الموت إلهٌ وشيطانٌ معاً،
لذلك لا يحبّه أحد.

هي ذي حالةٌ جديدة تحكمك في ضوء الشمعة: صحيحٌ، كيانُك واحدٌ كما هو، لكن الجسدَ هـو الذي يفكّـر، وليست الـرّوحُ إلاّ هـذا التعضيّ الحـركيّ الـذي نسمّيه الجسد. نكتشف هنـا أنّ الفكرَ أو مـا نسمّيه الفكرَ لا حدَّ له، بجسديّتـه ذاتها. ونكتشف أنَّ مـا سمّيناه الجنون قد لا يكونُ إلا نشـوة الكيان: نشـوة الجسد ـ الروح ـ عبثٌ إذن أن نقمـع تجليات هـذا الكيـان ـ وأن نسجنهـا في تصنيف أخـلاقيّ بـارد. تصبح طاقة التأمّل والعمل واحدة ـ حركـةً مفتوحـةً على الأشياء، في عالم أشياؤه مفتوحةٌ على الحـاسّة، مفتـوحةٌ عـلى البصيرة. وتتفتّتُ هبـاءً، أفكارنـا عن الواقع، وعن الإنسان، وعن التاريخ.

لا تستطيع، وقد نوّركَ ضوءُ الشمعة النحيلة، أن تغـالبَ شعوركَ أنك لستَ في ملجأ، بل في مركب يُعانِقُ،

تائهاً، لُجّة الليل. وتختلط الأشياء عليك: تجيء من لا وطن: الغرب في خطواتك حذاء، والشرق بيداء. وترى إلى الناس، في ذلك الخارج السّديميّ، وقد تحوّلوا الى أشياء، لا تُصنَعُ بيد الله - وإنما تصنع بأيدٍ أخرى وبطينةٍ أخرى: هذا مسدّس، وهذه رصاصة؛ ذلك صاعقٌ، وتلك قنبلة، والمكانُ طائرةٌ - شبح.

ادخلْ، إذن، في الهاوية، واقرأ في الصفحاتِ التي اسمُها الوجوهُ، إقرأ مختلفَ العصور: من الحجر حتى الذرّة، مروراً بسفينة نوح وأخواتها السّفن التي تمخر رمل الصحراء.

اقرأ: الرجل كتلةٌ رماديةٌ، بشكل محدّب أو مستطيل. المرأة هيكلٌ أحمر، مدوّر أو مائل. الرجل، تقريباً، رجل. المرأة، تقريباً، امرأة. ولا تعرف: هل يسكن كل منهما في الطين، أم الطين هو الذي

يسكن في كلٍّ منهما؟ولا بدّ لك من أن تجد وسيلةً ما
لكي تسأل تلك السلالة التي تتحدّث عن أشياء من
جنسٍ آخر، بين أسمائها النّار والجنّة، إبليس
والله .

واقرأ: حتى أشعة الشمس تبدو خيوط عنكبوتٍ ينسج
الشارع /
الشارع الذي لا يزال ينسجُه الكاهِنُ والمستعمر والتاجر ـ
الرموز الثلاثة لثلاث مراحل تاريخية (أوروبية)
تتلاقى على أرض لبنان، هنا حول الملجأ، وتصفق
للقاءٍ آخر: الأشلاء التي تتطايَرُ ذرّاتٍ في سديم
بيروت .

/ . . . وكنت أقرأ في ضوء الشمعة النحيلة، كيف ينحني
الفضاء والزمن وينحني كل شيء. ربّما لحكمةٍ ما،
كنت أقول. لمحوِ الحدود بين المرئي وغير المرئيّ،

للمزج بين الأزمنة، والسخرية من تلك العصا المستقيمة: عصا السماء.

... إنه الليل بأرجلِه الهائلة الصُفْرِ يدبُّ على أرضٍ صفراء: هكذا بدأتُ أهذي. وكنت أشاهِدُ الرُّعْبَ كيف يخرُجُ ضبابُه ويسقف به رؤوسنا في الملجأ. وأرى الهاوية تحضن أيامنا/الهاوية التي كنت أسمع من ثقوبها صوتَ البحر القريب، وأرى تجاعيد وجهه، وأتبيّنُ البُقَعَ التي تلوّن أطرافَ أفقٍ يَتّكىء على وسادة الزَّبَد.

كان في قلب كل منا نبضٌ يعرّش على اللحظات. وكنّا، كمثل كائنات من طبيعةٍ ثانية، نمتصُّ دمَ الليل، لا لكي نقوى على التفكير، بل أملاً في أن نقوى على

مصافحة الفجر الطالع.

. . . أعودُ إذن، إلى الاستئناس بضوء الشمعة النحيلة. . . بقدموس وإليكترا، بأسماء ولدت تحت لهبها، من جلقامش إلى المتنبي، مروراً بامرىء القيس وأبي تمّام، دون أن ننسى أبا نواس. من هوميروس إلى سان ـ جون بيرس، مروراً بهيراقليطس وسوفوكليس، دانتي، ونيتشه، دون أن ننسى رامبو: ضوء شمعةٍ فانية، يتحوّل إلى أبدية من النجوم.

. . . وكانت رائحة الشمعة في الملجأ تتسلّق الجدران المعتمة، ثم تهبط وتتمدّد فوق الكتاب الذي اتخذته وسادة متنقلة.

إنه الصباح: الشمس تجدّد الوقت، والحياةُ تجدّد الجسد.

صحراء II

. . . في زمانٍ يُصارحني: لَسْتَ مِنّي
وأصارحُه : لستُ منكَ، وأجهد أن أفهَمَهْ. . .

وأنا الآنَ طيفٌ
يَتشرَّدُ في مَهْمَهٍ
ويُخيّم في جمجمهْ.

ألفضاءُ مدىً يَتضاءَلُ، نافذةٌ تتناءَى،
والنَّهارُ خيوطٌ
تتقطّع في رئتيَّ وتَرْفُو المساءَ.

صخرةٌ تحت رأسي، -
كلّ ما قلتُه عن حياتي وعن مَوتِها
يتكرّر في صمتِها.

أتناقَضُ؟ هذا صحيحٌ
فأنا الآنَ زرعٌ وبالأمس كنتُ حَصاداً
وأنا بين ماءٍ ونارٍ
وأنا الآن جمرٌ ووردٌ
وأنا الآن شمسٌ وظِلٌّ
وأنا لستُ رَبّاً
أتناقَضُ؟ هذا صحيحٌ . . .

مُغلَقٌ بابُ بيتي
والظّلام الجافٌ، ـ
قمرٌ شاحبٌ حامِلٌ في يديهْ
حفنةً من ضياءٍ،
عجزت كلماتي
أن توَجّهَ شكري إليهْ.

أغلقَ البابَ، لا ليقيّدَ أفراحَهُ
. . . لِيُحرّرَ أحزانَهُ.

كلّ شيءٍ سيأتي، قديمٌ
فاصْطحبْ غيرَ هذا الجنونِ - تهيّأْ
كي تَظلّ غريباً...

لم تعد تُشرقُ الشمسُ: تَنْسلّ في خِفْيةٍ
وَتُواري
قدميها بِقشٍّ..

أتَوقّع أن يأتي الموتُ، ليلاً
أن يُوَسّد أحضانَهُ
وردةً
تعبتْ من غبارٍ يُغطّي جبينَ السَّحَرْ
تعبت مِن زفيرِ البشَرْ.

يهبطُ اللّيلُ [هذا
وَرَقٌ كـان أعـطاهُ للجِبْـر ـ جِبْـر الصّبـاح الـذي لم
يَجِيءْ]

يهبط اللّيلُ فوق السرير ـ [السّرير الّذي كان هيّأهُ
عاشقٌ لم يَجِيءْ]

يهبط اللّيل ـ لا صـوت [غيْمٌ، دخانٌ . . .]
يهبط الليل [شخصٌ
في يديهِ: أرانبُ؟ نَمْلٌ؟]
يهبط اللّيل [سورُ البناية يهتزُّ، كلّ السّتائر شفّافةٌ]
يهبط اللّيل، يُصْغي:
[أنجمٌ مثلما يعرف اللّيل خرْساءُ
والشّجرات الأخيرة في آخر السّورِ لا تتذكّرُ
ماذا يقول الهواءُ لأغصانها]
يهبط اللّيل [بين النّوافذ والرّيح همْسٌ]
يهبط اللّيل [ضوءٌ تسرّبَ، جارٌ
يتمدّدُ في عُرْيِه]
يهبط اللّيلُ [شخصانِ، ثوبٌ يعانقُ ثوباً
والنوافذ شفّافةٌ]

يهبط اللّيل [هذا مِزاجٌ ـ
قمرُ اللّيل يشكو لسِرْوالهِ
ما شَكاهُ المحبّون دوماً]

يهبط اللّيل [يرتاح في جَرّةٍ
مُلِئتْ خمرةً ـ لا ندامى
رَجلٌ واحِدٌ يتقلّبُ في كأسِهِ]
يهبط اللّيل [يحملُ بعضَ العناكِب، يرتاح للحشراتِ التي لا تُسيءُ
لغيرِ البيوتِ / إشاراتُ ضوءٍ:
أملاكٌ أتى؟ أم قذائفُ، أم دعواتٌ؟
وجاراتُنا

كُلّهن ذهبْنَ إلى الحجّ ـ عدن أقلّ ضُموراً، وأكثر غُنجاً]
يهبط اللّيل [يدخل بين ثُديّ الأيامى
وجاراتُنا أيامَى]

يهبط اللّيل [تلك الأريكة ـ تلك الوسادةُ: هذي ممرٌّ
وهذي مَقرٌّ]

يهبط اللّيل [ماذا نُعدّ؟ نبيذاً؟ أم ثريداً ولحماً؟
يُخبِىء اللّيل عنّا شهيّة أحشائِه]
يهبط اللّيل [يلهو قليلاً
مع حلازينِه،
مع يَمامٍ غريبٍ، ونجهلُ من أين جاءَ،ومع حَشَراتٍ
لم تـردْ في فصولِ الكتـابِ الذي خـطّهُ اللّقاحُ عن
الحيوانِ وأجناسِهِ]

يهبط اللّيل [رعْدٌ
أم ضجيجُ الملائِكِ جاءت بأفراسِها؟]
يهبط اللّيل [يَهْذي
يتقلّب في كأسِه . .]

مَن يُريني كوكباً
يمنحني الحِبْرَ لكي أكتبَ ليلي؟

كتبَ القصيدةَ، ـ
(كيف أقنعهُ بأنّ غدي صحَارى؟)
كتبَ القصيدةَ، ـ
(منَ يزحزح صخرة الكلمات عنّي؟)
كتبَ القصيدةَ، ـ
(لستَ مِنّا، إن أنتَ لم تقتل أخاً)
كتَب القصيدةَ، ـ
(كيف نفهم هذه اللّغة الطريدَهْ
بين التّساؤل والقصيده؟)
كتبَ القصيدَةَ، ـ
(هل سيقدر ذلك الفجرُ المشرّدُ،
أن يعانِقَ شمسَهُ؟)

كتبَ القصيدةَ،ـ

(بين وجه الشمس والأُفُقِ التباسٌ)

كتبَ القصيدَة،ـ (فَلْيَمُتْ. . .)

أتكَلّمُ؟ عن أيّ شيءٍ؟

وبأيّ اتّجاهٍ أسيرُ؟

سألتكَ يا نَوْرَساً يتموّج في زُرْقَةِ البَحْرِ . . . / كلاّ

من يقولُ: سألتُ، ومن قال:

أسْتَشْرِفُ البحرَ، أو أتحدّثُ مع نَوْرَسٍ؟

لم أكنْ،

لم أسِرْ،

لم أقُلْ. . .

سَأُناقِضُ نَفْسي
سأضيفُ إلى معجمي :
لُغتي لستُ منها، فمي
لم يكن مرّةً فمي ـ
آهِ، يا نجمة الخرابِ، ويا وردةَ الدّمِ.

كان لي أنْ أُمَزَّقَ، أنْ أَتَناثَرَ في غابةٍ من لَهَبْ
كي أضيءَ الطّريقْ،
مُدّ لي يَدكَ الحانيه
رُدّ ما أخذَتْهُ لياليك من شمسيَ الدّاميهْ
أيّهذا الصّديقْ
أيّهذا التّعَبْ

كلّ ما أنكرتْهُ العيون سَتَرْعاهُ عيني،ـ
ذاك عهد الصّداقة بين الخراب وبيني.

منذُ أسْلمتُ نفسي لنفسي، وساءلْتُ:
ما الفَرْقُ بيني وبين الخرابْ؟
عشت أقصى وأجملَ ما عاشه شاعِرٌ:
لا جوابْ.

بعدَ أن مَزّقَ الشعر ثوب الزّمانْ
صِرتُ أدعو الرّياحَ لِأهديَها، لِتصيرَ يداها
إبَراً
كي تَخيطَ بأشلائِه المكانْ.

ما الذي لامَسَ المتنبّيءُ
غيرَ التّرابِ الذي وطئتهُ خُطاهُ؟
هكذا ـ
لم يَخُنْ ما تَراءى له
في نُبوءاتِهِ، سِواهُ.

لا تموتُ لِأنّكَ مِن خالقٍ،
أو لِأنّكَ هذا الجَسَدْ
أنتَ ميتٌ لأنّك وَجهُ الأبَدْ

لِيَكنْ،
مِن حَقّ احلاميَ أن تُهمل جسمي
وجسمي أن يخونَ الأرَقَ السّابحَ فيهِ..

يَنْبغي ان ادعُوَ الذِّئبَ لكي يجلوَ مِرآةَ خِرافٍ
نسيت صورَتها...

لم نَعُدْ نتلاقى
لم يعد بيننا غيرُ نَبْذٍ ونَفْيٍ،
والمواعيد ماتت، وماتَ الفضاءُ، ـ
وَحْدهُ الموتُ
صارَ اللّقاءْ.

زهرةٌ ـ
أغْوَتِ الرّيحَ كي تنقلَ الرّائِحهْ
ماتتِ البارحهْ.

تَعبي يرقدُ عصفوراً، ـ سأبقى
مثلَ غُصْنٍ:
لن أبوحَ الآنَ، لن أُوقظهُ . . .

أَالغطاءُ يُشَقُّ، ويُفْتَضَحُ التّرجمانْ
في الحريق الذي يلبس الآنَ وجهَ المكانْ.

مقْهى ـ والبحرُ، اليومَ، ينامُ كطفلٍ /
هذا وجهٌ أعرفُهُ ـ أهلاً، كيف الحالُ، وهذا
صوتٌ أذكرُهُ...
ــ لم يأتِ الفوّالُ اليومَ...
ــ مريضٌ؟ أمْ هُجِّر؟
ــ مجهولونَ رَموهُ
في بئْرٍ...

... /والبحرُ ينامُ، اليومَ، كطفلٍ..

لَسْتَ هذي المدينةَ أو تلك،
لستَ الإقامةَ والذكْرياتِ/ الأقاصي رهانُك ـ لكنْ
خطواتُك مذعورةٌ
وتواريخُ ذاكَ الفضاءِ الذي كنتَهُ
طيوفٌ
وبَوَارِقُ من شُعلةٍ تتلاشى . . .

خالِقٌ يأكلُه الخَلْقُ، بلادٌ
في الدّم الدّافِقِ مِن أشلائها تختبِىءُ، ـ

إنّه العَصْرُ الذي يبتدىءُ.

كلّما قلتُ: هذي بلاديَ تدنو
وتُثمر في لغةٍ دانيهْ
قَذفتني إلى بلدٍ آخرٍ
لغةٌ ثانيَهْ.

شَجَرٌ ينحني ليقولَ وداعاً
زَهَرٌ يتفتّح، يزهو، ينكّس أوراقَه ليقولَ وداعاً
طرقٌ كالفواصِلِ بين التّنفس والكلمات تقول وداعاً
جسدٌ يلبس الرّمل، يسقط في تيهِهِ ليقول وداعاً
ورقٌ يعشقُ الحِبْرَ
والأبجديّةَ والشعراء يقول وداعاً
والقصيدة قالت وداعاً.

كلّ ذاك اليقين الذي عشتُه، يتلاشَى
كلّ تلك المشاعِل من شهواتي وأشيائها، تَتلاَشى
كلّ ما كان بيني وبين الوجوه المضيئة في هجرتي، تتلاشى

أبدأ الآنَ من أوّلٍ. . .

يتساقطون، ـ الأرضُ خيطٌ من دخانٍ
وأظنّ أنّ الوقت قافلةٌ
تسير وراءهُ. . .
شَغفي هنا والآنَ، تيهٌ
وَشكيّتي أنّ النّهاية لا تزالُ بدايةٌ. . .

أشخاص

أحمدُ . . .
تحت أهدابِهِ نجومٌ
غير أنّ العناكب تنسج أحلامَهُ.

يَسْتضيء سليمانُ، لكن بقوّتِهِ النّابِذَه
حين قال: اهتديتُ، وأسلمَ أجفانَهُ
لِلضّياء الذي شعَّ في بيتِهِ
كان وجه الفضاء غراباً على النّافِذه.

لم يقل قاسِمٌ: إنّ للحلم فأساً
قال: للحُلْمِ حَقْلٌ . . .

وردةٌ أجْهشَتْ بالبكاءْ
حين غطّى عليٌّ بأوراقِها وجهَهُ، ـ
كان يبكي الطّيورَ التي هاجَرَتْ
ويُعزّي الفضاءْ.

فجأةً ـ في تَقاطُعِ دربين، وَجْهٌ ـ
هُوَ؟ لكنّه ماتَ، أو قيل ماتَ. ضجيجُ
عرَبَاتٌ
وباعةُ خَسٍّ وتَبْغٍ،

أأناديهِ؟ ناديتُ ـ وجهٌ
لم أميّز ملامحَه، رَدَّ. . . أهلًا،
ما اسْمُهُ؟
ضجّةٌ ورصاصٌ ـ فجاةً، وهديرٌ:
صوتُ نَقّالةٍ. . .

كُلَّ نهارٍ. . .
يَسْتَيْقِظُ قبلَ الشّمس، لينظرَ من شُرْفَتِه
كيف يُحيّي الزَّهْرُ
خطواتِ الفَجْر.

ـ ما الذي يُدخل الفضاءَ لغرفتِهِ الدّاميةْ؟
ـ نارُ أشْلائِهِ العاليةْ.

إعتذرْ
لِلدُّروب التي ضَلَّلَتْها
خطواتُكَ، واخْضَعْ
لِلظَّلام النَبيّ
أكثرُ من مارقٍ أنتَ في هَوْلِ معراجكَ العربيِّ.

لا المداراتُ، لا اللّغة النّافره
مِن جراح المدينةِ أغْوتكَ، ـ أسلمتَ لِلّحظة العابِره

خطواتِكَ، ـ
لا شيءَ غيرُ الطّرائِدِ في غابةِ الذاكرهْ.

جسمكَ الآنَ قِنديلُ ظنّ
والمكان يموجُ من الرُّعبِ، عيناكَ لا تُغمضانْ
خوفَ أن يهربَ المكانْ.

لا أُريدكَ أنْ تتحدّثَ أو أن تلوّح: أبْهَى
أنْ تَظَلَّ غياباً
كي تظلّ سؤالاً.

كان هذا مَمَرًّا إلى بيتها، ـ كثيراً
خبّأتْنا شجيراتُه، ورسمنا
في تقاطِيعِه خُطانا، ـ
وهنا كان مروان يجمع أصحابَهُ...
مات ميثاقهم وماتوا
وامَّحت هذه العتَباتُ.

أخذوهُ إلى حفرةٍ، حرقوهُ
لم يكن قاتلاً، كان طِفْلاً
لم يكن . . . كان صوتاً
يَتموّجُ، يعلو مع النّار، يَرْقى على دَرَجات الفضاءْ
وهُوَ، الآنَ، شَبّابَةٌ في الهواءْ.

ليس منديلُها لِيُلَثِّمَ وجهاً
أو يردَّ الغبارَ، وليس لكي يمسحَ الدّمعَ، منديلُها
طَبقٌ الخبز والجبن والبيضِ، وهو لِحَافٌ
لِرشّاشِها،
كان منديلُها رايةً . . .

تَرَكَ القافله

ومزاميرَها وهواها،ـ

مُفْرَدٌ، ذابِلٌ

جذبتهُ إلى عِطرها

وردةٌ ذابلهْ.

ستَظلُّ صديقي

بين ما كان، أو ما تَبقّى

بين هذا الحطامْ،

أيُّهذا البريقُ الذي يلبس الغيمَ، يا سيّداً لا يَنامْ.

لا يَلمَحُ غيماً، لا يلمح ناراً ـ
مِن أين إذنْ، سَيجيء الماءُ؟
أيجرّ خطاه مع الكلمات، ويتبع قافلةَ الأشياءُ؟

أخذت ما تيسّر من خبزها/كان طفلٌ
يتلهّى بعكّازها
ويدبّ على قدمَيْها، ـ
حملته كجوهرةٍ، غَمَرتْهُ
ورمت فوقَهُ وجْهَهَا
ومَضَتْ تتوكّأ/عُكّازُها
إرثُها من أبٍ
مات قَتْلاً . . .

أَلنّهار رغيفٌ
والمساءُ إدامٌ لهُ،
أَلمساءُ رغيفٌ
والنهارُ إدامٌ لهُ
ورقٌ يتقلّب في رِيحِه /
سيكونُ الشتاء طويلاً
سيموت الربيعُ بلا أُغنياتٍ، ـ

إنّ هذا رثاءٌ لليلى التي لم تَمُتْ . . .

أحداً كنتَ أو لا أحَدْ
وَمْضَةً أو رماداً
بين أشلاء هذا الزمانِ، ـ سَواءٌ قُذِفْتَ إلى ظُلمَةِ القاع،
أو غَمرَتْك جبال الزّبَدْ،
نكهةُ الفَجْرِ أنتَ، وضوء المسافاتِ أنتَ، وهذا المدى
لشموسك، هذا الصّدى

لأغانيك، ـ صَوْتيَ في غَصَّةٍ، ورياحيَ مخنوقةٌ،
وأغنّيك وجهكَ وجهك، لكنَّ موتك مَوْتيَ
غير أنّيَ في نَزْفِ جُرْحِكَ، في نار أوجاعِهِ أتفجّرُ،
أجلو لنفسيَ نفْسي
ويُصالح بيني وبين حياتي معراجك الدّمويُّ
وأهاجِرُ مثلك بين الفجيعة والفَتْكِ، والرّعبُ
يُوغل في خطواتِك في خطواتيَ،
والموتُ صيّادنا العربيُّ.

مُتَّ لكنّك الآن أنشودتي ورفيقي
وأنا لستُ منك، ولكنّني أنْتمي لهديركَ، للعاصِفِ
المتموّج في ساعدَيْك
وطريقُك ليستْ كما أتنوّرُ، لكنّها طريقي
وأنا الآن أقربُ مِنّي إليكْ.

وأنا حين أرنو لموتك، أسأل: هل قدمايَ على الأرض؟
هل جسدي راسِخٌ؟
أم تُرى عالِقٌ في فضاءِ من الرُّعبِ، مستسلماً
أتدلّى؟
وأنا حين أرنو لموتِكَ أسأل: هل أنت أقربُ منّي إليّ؟
وَأسائِلُ: هل وطني هذه الأرضُ، أم وطني موتُك
الأبجديْ؟

لِنقلْ: بيننا عَهْدُ نسْغٍ
وطريقٌ - من الجَذْرِ حتّى الثّمَرْ
لِنقُل: كلُّ ما كان بين العجينَةِ والخالِقِ انكسَرْ
ولنقلْ: نبدأ الآنَ من هجرة الرّيحِ في غابةِ الشّرَرْ
وَلْنَسِرْ، لا لهذا المكان، ولا ذلك المكانْ
لِنسِرْ، حيثُ لا شيء إلاّ الطريقُ وإلاّ الزّمانْ
أنّنا طاقةُ الجَذْبِ والنّبْذِ أنّ رؤانا
وخُطانا مدارُ
لأساطيرِ هذا الزمانْ.

الأسود السيد

الزاوية في الملجأ بؤرة جاذبية، يتجاذبُها الضوء والظلام.
تشعر، وأنتَ جالس فيها أنك شراع يكاد أن يجنح،
لحظة تشعر أنك راسخٌ كمرساة.

في الزاوية، تكون أكثر قدرةً على الملاحظة. تُراقب ضوء الشمعة كيف يُعطي للظلام في الملجأ معنى آخر. وتقول: الظلام هنا لا يشبه الظلام في الخارج. كأنما حين ينحصر الظلام بين الجدران يزداد كثافة، خصوصاً في ضوء الشمعة. وتشعر أنت كأن جسدك يُفلتُ منك، لكي ينزلق، بشيءمن اللامبالاة الطفوليّة، تحت العربات غير المرئية لهذا اللعب

الصامت الذي يدور أمامك بين الضوء والظلام.
تشعر كذلك أن فكرك نفسه يُفلت منك ويتيه في زمن آخر. ليس ماضياً تماماً، وليس حاضراً محضاً، ولا تستطيع أن تؤكد أن المستقبل ليس جزءاً منه.
كأنه عمق بلا قرار تهبط فيه مترنحاً، لكن بوعي مسنون.

حين يتيسر لك أن تتأمل الأشخاص الذين يشاركونك الملجأ، ترى كأنَّ جسم كل منهم طبقات من السواد، بعضها إلى جانب بعض، وبعضها الآخر فوق بعض. ومهما كان الشخص ساطعا، تراه كأن على وجهه حجابا.

إذن، نحن الآن نجلس في الملجأ. كلا، لا نجلس ـ بل نتموّج. ثمة ما يزعزع تحتنا الاسمنت وأركانه. واللحظات التي كنا نشعر فيها أن المبنى كله يكاد أن يُزلزل من شدة القصف، كانت من اللحظات التي لا تُقال، لأنك إذ تعيشها للمرة الأولى فأنت تعيشها حتى الموت. وبالقول، أنت تحفظ ما يُنسى، ولا تكرّر ما يُعاش.

ملجأ؟ كلا، ليس ملجأ، بل قَبْو، ربما يصلح لإيواء سيارة أو بعض الأشياء التي لم تعد قابلة لكي تستخدم في الحياة اليومية. مأوى لما ليس حيّاً. أو قبرٌ. نِسبتُه الى القبر الحقيقي كنِسْبةِ النوم إلى الموت. الملجأ قبر موقت، كالنوم ـ الموت الموقت.

كان البياض الذي يشعّ من الضـوء الخافت يخترق ظلمة الملجأ، ويُحولها إلى نسيج من السواد الموشّح بأشعّةٍ شاحبة. ومن شحوب الضوء في السّواد وشحوب السواد في الضوء، يتكوّن مزيجٌ - شبح لا تعرف كيف تفسره أو تحدده. ومع هذا قلما تشعر بدفء غامضٍ وغامر، كما تشعر وأنت تتأمله. ربما لأنه جزء منك أو لأنك جزءٌ منه. ربما لأنه حالة ليست من الطبيعة وحدها، ولا من الثقافة وحدها.

كنت أجيل النظر، وأعطي لبصيرتي مداها، مُحدقاً فيه، أفقياً وعُمقياً. وأرى كيف يرسل الاشارات، وكيف يتغير هيكل هذا الوجود، الشبح - المزيج، مع تجدد الاشارات، وأتساءل: كيف يمكن لهذا السواد أن يكون نيّراً، ولهذا البياض أن يكون سواداً آخر؟

وفي لحظة، بدا لي كأن أنفاسَ اللاجئين المذعورين تتصاعد وتتناثر على جسد السواد بلورات مشعة، تنوّر هذا النسيج الليلي، عنيتُ هذا القميصَ الأسود

الذي يضمنا جميعاً.

للسّواد تاريخ، وهو تاريخ شامل، لا العالمَ وحده، بل الذات أيضاً. لا الطبيعة وحدها، بل ما وراءها كذلك.

أنا، شخصياً، ابنٌ للسّواد. والسّوادُ، عندي، بشرةُ العالم الذي أراهُ وبشرةُ المرأة التي أحب. وهو النبعُ الذي يُغذي ذلك التاريخ الذي يتدفق ماءً أسود ـ تاريخَ الفقراء والمحرومين. وأنا عاشق الأبنوس، وصديقُ الغموض والعتمة.

أينما ولّيت وجهي، فثمّ وجه السّواد. ولَوني أسود، وأكيّف أشيائي لكي تكونَ جديرةً بهذا السّواد.

السّواد السّديم الكونيّ: مادة هذه الخليقة.
والسّواد حبر العالم..

تعرفُ اللغة، هي أيضاً، كيف تعطي للسّواد بهاءه وشموله.
فالسّواد هو الشخص، شخص كل شيء. كذلك البياض: شخص كل شيء، وقد أخذ هذا المعنى تيمناً بالسّواد.

والسّواد النخل، والشجرُ سُمّي سواداً لخضرته، فالأخضر يقارب الأسود، والخُضْرَةُ تيمّن سواديّ.

والسّواد كلّ ما ليس مدينة، كل ما ينهض في الطبيعة، وعلى مستواها، محضوناً بأيدي الناس الذين

يعايشونها. كأنما يعملون بيديها، ويتكلمون بشفتيها، ويسيرون بخطواتها.

والقرية سواد.

والسّواد معظم القوم. وسواد الناس هم الذين يشكلون مادة التاريخ. وسواد القلب دمُه وجوهره. والأسودُ: الليل. والأسودان: التمر والماء. والسيّد من السواد.

حقاً، حين تبرز الأرض في أجمل ثيابها، تبرز في قميص أسود.

هكذا، أشعر الآن أن سوادَ الملجأ يأخذني إلى سواد الجنوب، الجنوب هذا السّواد الحسيني، هذا الأسود، الآسر، السيّد، حيث تتمسرحُ الحياة

اليومية أجساداً تتزاحم لكي ترفع راية السّواد، وحيث يتأكد لك أن السّواد أجمل بيت يمكن أن يسكن فيه الإنسان.

تنظر إلى المرأة الجنوبية، فترى أنها موجودة، أولاً، بوجهها، وترى ان سواد الوجه سيّد على الجسم. وتنظر إلى الرجل الجنوبي، فترى كأن الشخص الحسيني الانتماء ليس متجسداً على الأرض، بقدر ما هو متجسد في فضاء الحسين. كأنه زائرٌ عابر، وليست الأرض إلا جسداً يعبر عليه الى ذلك الفضاء.

عاشوراء تكشف وتؤكد: تصل النشوة بذكرى الحسين وتاريخه إلى درجة لا تمييز فيها بين الحياة والموت. بل تكاد عاشوراء أن تكون مناسبة لممارسة الموت، أو للحلم به، أو لاستعجاله ـ كأنه الحياة في أعلى ذرواتها.

الملجأ. . . . / امرأة تنهض في السّواد (لا يمكن فصل المرأة عن السّواد، فهي سوداء حتى في بياضها) تنهض بثديين أصغر من رُمّانتين، وقامة كأنها القصبُ الذي كانت تصنع منه الأقلام، وخاصرة نحيلة يكاد أن يتسع لها الخاتم، تنهض في سوادها (لا تكون الشمس جميلة إلا حين ننظر إليها، ولا نقدر أن ننظر إليها، إلا وهي تلبس الغيم)، تنهض في سوادها الغيّمي، وتصرخ: «الموت أفضل. . . الموت أجمل».

- لم أعرف ماذا أقول لها. أحْسَسْتُ وأنا أسمع صوتَها ولا أكاد أن أتبينها، أن شيئاً ما يتمزّق: خُيِّل إليّ أن الملجأ قميص، وأنّ صوت هذه المرأة زرٌّ سقط من عُروته التي تجاوِرُ السرّة. . .

لماذا، لا أقدر أن أرى الجمالَ إلاّ في السّواد، وفي ما هو
قريب إلى الظل؟
سؤال أطرحه على النهار، وعلى هذه الشمس.

رسائل

يهبط اللّيل من شُرُفاتِ الفضاءِ،
ويجلسُ في حَيِّنا
هَرِماً، شاحِباً،ـ
مَعهُ تجلس البيوتُ وأحلامُها
تَترامى على صدرِه،
وتُغازِل عُكّازَهُ. . .

تنهضينَ مِنَ النَّومِ ،ـ زندٌ حنينٌ،
وزندٌ عِناقٌ،
يَتبادَلُ أحلامَنا جَسدانا ـ

نشربُ الشّايَ،
نسمعُ بين الفناجين همْساً.
حولَنا زَهراتٌ
بعضها ذابِلٌ يتذكّر أوراقَه
بعضُها يتعرّى،-

رِغْبتي أن أُحادِثَكِ الآنَ، تجتاحُني.

كلّ شيءٍ يُردّد عن حبّنا:
ألسّريرُ
السّتارُ
النوافِذُ
صوتُ الطيور - الصّدى
ونسيمٌ يُوصْوِصُ من كوّةٍ في الخَفاءْ،
كلّ شيءٍ يُردّد عن حبّنا:
نادرٌ أن يكون لِزَوْجينِ هذا الفضاءْ.

ليس قلبي شراعاً ولا غيمةً،
ليكونَ خفيفاً ويَطْفوَ/قلبي مَدارٌ
فلماذا، إذن، يَتطايَرُ فيكِ؟

أَلشّتاءُ يُودّع أشجارَهُ
دونَ أن يتذكّر أنّا وضعنا
عنده، نارنا
وامتزجْنا بأمطارِهِ / الصّيفُ يَجهل أحزانَنا
والرّبيع أسيرٌ لأزهارِهِ
ولأقلامها -
(كَتبت أمسِ مرثيّةً
رَدّدتها رياح الخريفِ)/ الخريفُ يعلّمنا كيف نَحيا.

ـ «وما الذي تَسْتَشْرِفُ الآنَ؟ وما المعنى الذي تبحث عنهُ؟
واثِقٌ أنّكَ تلقاهُ وتَلْقى
مَن يؤاخيكَ ومن يُصغي إليكْ؟

سنغنّي
ليكونَ الزّمنُ الطّالعُ باباً
وتكونَ الرّيحُ مفتاحاً ـ وضعنا
لهبَ الأسرارِ فيهِ،
ورَماهُ حبّنا بين يديْكْ».

فاصل من الغبار والورق

بين بيتِنا وقاعة الدّرس في الجامعة،
فاصِلٌ من الغبار والورق اسمُه شارع الماما، يتموّج
بحيرةً أرى فيها الدّقَائِق بجعاتٍ، والتّاريخ
نيلوفرا، أو هكذا يُخيّل إليّ.

هذا الشارعُ مَلاكِيَ الشّيطانيّ. يعطيني الحاسّة التي تُدرِك
ما لا يُدْرَك، والأسرار التي لا تنكَشِف. تنقاد إليه
بإلفةٍ ويقودُها إليّ. والكلماتُ التي لا تُروّض،
تستسلم لحبرِه ويُسلمها لأوراقي.

الجمعة، نهارٌ من الصّلاة والغزل،
يمتلىء بأراغنَ خفية تنبعث من مقهى جورج، من ديوان عادل فاخوري وعبدالأمير عبدالله، في موكب من ملائكةِ اللذّة.

نهارٌ ـ طائرٌ بزرقة البحر،
يختلط جناحاه بِخُصلٍ من شَعْرِ عُشّاق وعاشقاتٍ يعلموننا كيف نوحّد بين ساعات العملِ وساعات الحبّ. يختلط بالكتب التي تتنقل بين الأيدي صحوناً من الضوء. يختلط بأراغنَ للحياةِ انكسرت، لا نزال نسمع أنينها:

«١٩٧٥ ـ ١٩٨٤ تاريخٌ مشنوق
في فضاءٍ من السمّ،
سماءٌ تُمطِرُ القتل، والرّعب يخيطُ الشوارع،
القنابِلُ أسرّة للأطفال،
والشظايا تمشّط النساء»،

يختلط بأجسادٍ تسير أزواجاً ـ ذكـراً وأنثى، تؤسس لعهد
آخر،
ـ النجاح يمضي وأنا أجيء
الزمن يجيء ونحن نمضي،
هل ترافقينني، هذه الليلة؟
ـ سأسأل شموعي.

ـ يدكِ في يدي جسرٌ يتنزه عليه قلبانا،
ـ ما أسرعَ قلبكَ،
ـ ما أبطأ جسدكِ

ـ من هذا الرجل الذي يشبه أحزاني؟
هل أومأ حقاً، أم شُبِّه لي؟

وفي حـين يسخر عـادل فـاخوري من جمجمـة هـاملت،
ويستنـطق عبدالأمـير عبـدالله آدم ـ ذلـك الأبَ
المسكين، يُطلق الطلاب صقـوراً من أجسـادهم

تطارد الرغبة، ويسكر الجسدُ بفطرته ـ

لكي يبقى شاعراً،
لكي لا يرى حوله غير كائناتٍ تهذل بالحبّ.
إنها الرغبة البصيرة التي تحرّر الطاقة،
إنها العادة ـ مجبولة ببهارات الرّوح.
كلا، ليس للإنسان بيتٌ أجمل من الصداقة.
وانظروا ـ الدمع نفسه الذي يترقرق في العيون ليس إلا
ماءً لريّ الحياة.

الجامعة / شارع الماما،
يكاد جسدي أن يرقصَ احتفاءً بهذه الطالبة التي
تتوهم أنها تقرأ، وهي في الحقّ تنتظر صديقها.
أكاد أن أهجم على كل عابر، فاتحاً ذراعيّ ـ
صائحاً: أهلاً، أهلاً، مأخوذاً بهذا العيد المادّي
الذي يصنعه بائع الكتب وبائع العلكة، عاشق

المرأة وعاشق الحزب، الفاكهة من كل نوع
والكلام من كل نوع، ضجيج الأقدام وصخب
الأصوات، بستانُ الصُّور وغابة الشعارات،

وأكاد أن أعلن: كل شيءٍ مُباحٌ في هذ النشوة.
ـ ماذا يقول عادل فاخوري وعبدالأمير عبدالله؟
ـ حين يتكلمان لا بدّ أن نصدق،
ـ أصدق أنا الذي يفهم حزنَ النباتات
ويقرأ كتابة العشب.
الجامعة/شارع الماما،
هديرٌ من جهة الرملة البيضاء
كلا، إنه البحر.
يكفي أيها الجحيم،
وسحقاً للحربِ الكاذبة ـ

في زاويةٍ من بيتنا، أحتفظ منكِ بشظايا تتغلغل في

لوحات أصدقائي، في كتبي وأشيائي الحميمة، ولا
أزال أرى دماء الكتب، وأسمع أنين اللوحات،
وألمس في دفاتري جراحاً لا تلتئم.

وليس بيتُنا إلا سَطْراً في كتاب المدينة،
سُحقاً للحرب الكاذبة.

أفكر فيكِ أيتها الشوارع التي احترقت
سوق الطويلة خصوصاً، والأسواق الشقيقة
المجاورة،
وأذكر أثينا وروما اللتين نامتا طويلاً على وسائدك،
بقمصانٍ تأنقت في ابتكار لونها الأرجواني.
أذكر، وأسمع هديراً من جهة الرملة البيضاء ـ
كلا. إنه المتوسط بحرُنا الحكيم:
أعرف أن هذه الشوارع لم تعرف مرةً كيف تخترع
رصاصة أو أي سلاح يقتل الإنسان،
وأنها لم تبرع إلا في ابتكار ما يدفعه لكي يُصبح
إلهاً آخر،

وأنها لم تُنجب غيرَ ما يكمل هذه الرسالة:
الأبجدية والشعر، الشرائع والأشرعة،
مع ذلك سيقول التاريخ:
عاشت فترة طويلةً
لم تأكل فيها إلا اللحم البشريَّ.

أعرفُ أن الكنيسة لا تعرف وأن الجامع لا يعرف كيف
يُشوى جسم الانسان، وهل يكون أطيب مشوياً على
الفحم، أو مشوياً على الغاز، مقلياً بزيت الزيتون أو
بزيت عبّاد الشمس،
واعرف أنّ أيّاً منهما لم يُقم أيّة وليمةٍ منه، ولم يَدْعُ أحداً
من الملائكة، ولم يدع القمرَ ولا أية نجمة،
مع ذلك، سيقول التاريخ:
عاشت هذه المدينة فترة طويلة
لم تُولم فيها، ولم تأكل
إلا لحمَ الإنسان.

هديرٌ من جهة الرملة البيضاء،
كـلا، إنه المتـوسط، بحرنـا الحكيم، سيد الـرمـوز سيـدُ
الأسـاطـير. يبسط أمـواجـه في هـواء يحمـل ملح
الخليقة. أمدّ موائِد الحلم، وأدعو أحبابي، -

الزمن صفحةٌ بيضاء، ونحن الكتابة.

(٢٨ تموز، ١٩٨٤)

طوفي، أيتها الكآبة...

اليوم، لبست ذاكرتي أجمل ثيابها وسارت إلى جانبي في شارع الماما. ومع أنه مُثقلٌ بالنجوم التي لها عينان وقدمان، فإنك لا تشعر بثقل التاريخ وأنت تعبره. خفيف ويحبّ الصعود. النجوم الحقيقية نفسها، خصوصاً في ليالي الخريف، تترنح فوقه،

تودّ لو تنزل وتصعد به،

لكنّ انشغالها بصديقها، الأثير السماوي، يسلمها دائماً إلى التردّد والحيرة.

أحياناً،

لكي تقدر خطواتي أن تستسلم لأهواء شارع المامّا، أحمل تمائم لها خصائص الجذب والنّبذ.
أضع بعضها في فراغات تفصل بين العين والعين،
وتتحرّك مع المارة،
وأضع بعضها ثابتاً في أماكن خفية، لرصد أشياء لا أبوح بها الآن.

أحمل هذه التمائم لأعرف أيضاً كيف أميّز بين خطب مجهورة وأخرى مهموسة في جهات الشارع كلها.

خطبة، ـ

«حفروا في بيوتهم ملاجىء
حفروا في الملاجىء ثقوباً
حفروا في الثقوب ثقوباً أكثر خفاء
تغطوا بالحجر والاسمنت.. لكن
نبشتهم القذائف، والتهمتهم نارها الآكلة».

خطبة، ـ

«المرأة التي تستقبلك في سرير (ها)
شجرة ملأى بأعشاش الرغبة
المرأة التي تستقبلها في سرير (ك)
طائر مهاجر».

خطبة، ـ

«للتاريخ مسرح
لا يستقبل إلا الذين يعرفون أن يروا، الآن،
تلك الأشياء التي لا ترى
إلا غداً».

أحياناً،

تتراءى لي، فيما أسير، أشباح أشخاص يسكنون في مدن

اخرى، في بلدانٍ أخرى. تتراءى، فجأة، وعفـواً.
وكثيراً، ما أتوقف، متوهماً أنني ساصافح واحداً، أو
أعانق آخر.

ربّما ظننتَ نفسك نبيّاً، حين يستوقفك في اللحظة نفسها،
اصـلٌ لشبح مـا. أحقاً مـا أرى؟ أهذا أنت؟ يسلّم
عليك بحرارة، أمـا أنت فترتبك: لا تزال تـذكـر
وجهه، لكنك نسيت اسمه.

كيف أنسى اسمه؟ هل شيّختُ الى هذه الدرجة؟
تتحدثان. يمرّ أشخاص يتحدثون هم أيضاً، ـ

ـ كما تشائين،
ـ أنتظر إشارة.

ـ يجثو أمامهـا، كـما يحـدث في القصص أو عـلى المسـرح
ويقرأ لها قصائده

ـ مسكين،

هكذا دائماً: يمشي، ويتحدث مع نفسه.

تختلط هذه الأصوات بصوتينا ـ خصوصاً بكلماتي التي تتشرّد بين حضور صديقي وغياب ذاكرتي.

نتبادل عنوانينا، ونفترق.

هل النسيان شكل آخر للموت، أم شكل آخر للحياة؟

أسأل متنهداً، كأنني أتوحّد مع هواء الخريف.

أكاد أن أنسى ذاكرتي التي تلبس أجمل ثيابها وتسير إلى جانبي.

ـ حسناً. دورِكِ الان.

حين جذبتني قدماي الى مقهى جورج، تيمّناً بديوان

عادل فاخوري وعبدالأمير عبدالله وبقية المريدين، شدّتني الذاكرة إلى مقهى آخر: «الهورس شو» / «سرّة الحمراء» ـ كنا نقول عنه، يوسف الخال وأنا، وكنّا أول من زيّن هذه السرّة بوشْم الشعر. وكان طلال حيدر، حين يهبط علينا كأيّلٍ شرب لتوّه من ماء العاصي، تستأثر بكلامنا سرّة أخرى،

لكي نُحسن النّوم (وربما اليقظة)
ولكي يُحسن النّوم صيده الطيّب في بحيرة الليل.

ـ متى يصدر العدد الجديد من «شعر»؟

ـ «الشعر كهذا الشارع: عرس المادة وعيدها. لا نجدّد بيروت حين نسميها أمّ الشرائع، أو حين نستدعي اليسّار لكي تعلم النساء كيف يجدلن شعورهن حبالاً للسفن. أو حين نستنفر هنيبعل، مذعورين: هذه روما ثانية، تتهيأ لغزونا. أو حين نرجو زينون: علّمنا يا سيدي حكمتك، واجعلنا أكثر صبراً من الحجر...

الشعر عرس المادة وعيدها ـ في هذا المكان، في هذه اللحظة».

ويمتلىء المقهى بدخان ـ كلام، يتداخل في نصّ خارج النوع. ونشعر أن المقهى نهر، والأفكار أوراق تطفو، ونسمع من يقول: الزَّبد نفسه جزء من الماء.

وترى إلى يوسف الخال صامتاً، كأنه ينتظر زائراً ما، يأتي خفيةً ويضع في يديه مفاتيح لسرٍّ ما.

ـ «أدونيس» ؟ كلا، يجلس كل يوم في مقهى الهورس شو. هو من الرؤوس. الشعر خطر أيضاً، شعره، خصوصاً. يجب أن يُعتقل. . . »

كان هذا الدخان يتصاعد كذلك، في الوقت نفسه، في أمكنةٍ أخرى،

مقهى الهورس شو/
أترك له كآبتي تطوف حوله. ماذا؟ تحاول أن تدخل،

لكنها لا تجد ما تجلس عليه .

طوفي، أيتها الكآبة .

ـ «سأريكَ ما كتبته، مؤخراً، أعطني رأيك في الفكرة، وانسَ الخطّ والحبر، سأعيد تخطيطها» .

إنه عادل فاخوري في ديوانه ـ **مقهى جورج** ، يتنبأ للشعر، ويعلّق نبوءاته أقراطاً في آذان هذه اللحظات التي تنفر أمامنا كغزالات تقرأ جراحها النازفة، وتوغل في غابة الموت .

وكنت ـ اهْدأي أيتها الذاكرة ـ تنبأت لشارع الماما، لبيوته وأطفاله، وأجريت في حبْري قوارب حملته في نزهات وأسفار،

وغيرت كتابتي باسمه،

وفي كل صباح، تلتصق قدماي بغباره حتى النشوة، وأبحث عن جسدي الذي يحبّ دائماً أن يعبر فيه ضباباً لكي يجاري الروح، فأراه متقطعاً يتواصل، متواصلاً يتقطّع،

وأنحني، كأنني ألملمُ ذرّات منه ـ تَفْلت من أصـابعي كما
يفلت الماء،
وأسأل: هل الميت فيّ ذلـك الذي غـاب من جسدي، أم
الميت هذا الباقي؟
طوفي، أيتها الكآبة . . .

هذا ما كتبه

محمد بن عيسى الصيداني

قبيل موته

سبقوني إلى زمَنٍ آخرٍ
دخلوا في عيونٍ من الحلْمِ في جسَدٍ من ضياءٍ . . .
إنّ جسمي يُقاتِل جسمي ،
وحنيني
جَارِفٌ كي أُسافِرَ ، كي أتحدّثَ مع رُفَقائي .

كلُّ هذي النّجومِ التي تَتكوكَبُ تيّاهةً
كَتِفٌ واحدَه ،
تَعِبَ اللّيلُ من عِبْئِها
وأنا مَثلَهُ
أتقلّبُ في نارها الخامِدَهْ .

ـ «الدّروبُ بِلا منفذٍ
والبيوتُ وأيّامها رمادٌ،
عَبثٌ موتُكَ الآن، لا شيءَ غيرُ الضَّيَاعْ».

لا تَسدُّوا فضائي
بتعاويذكم،
واتركوني لهذا الشُّعاع الذي سأسمّيه أرْضي:
إنّما الشّمسُ بيتيَ ـ بيتٌ لَنا،
وأنا لست إلاّ انعكاسَ الشّعاعْ.

خائِفٌ . .
هل نسيتُ الطّريقَ التي أخذتني
مرّةً، والتقيْنا؟

كان ما يُشبه الظّلامْ
كان موجٌ رمينا
في غواياتِه جَسَديْنا
وَهَوى جامحاً، وهَوَيْنا .

خائِفٌ . . . وكأنّي نسيتُ أسَاريرَها
ونسيتُ أحاديثَنا
ونسيتُ الكلامْ .

سَكَنَتْ وجهها
سكَنَتْ في نخيلٍ من الصّمتِ بين رؤاها وأجفانها. . .
بيتُها شارِدٌ
في قطيعِ الرِّياحِ، وأيّامُها
سَعَفٌ يابِسٌ،
وَرمالٌ.
مَنْ يَقولُ لِزَيْنَبَ: عيناي ماءٌ
ووجهيَ بيتٌ، لأحزانِها؟

قَطْرَةٌ من دَمٍ
إنّها قَطرةُ الدّمعِ في جَوْفِ هذا المساءْ
حملتني إلى صدرِها،ـ
صدرُها كلُّ هذا الفَضاءْ.

ألمحُ الآنَ أحزانَها
كالفراشاتِ، تضربُ قِنديلَها
حُرَّةً، ذاهِلَهْ
وأرَاهَا تُمزِّق مِنديلَها. . .

ألمحُ الآنَ أمّي:
وَجْهُها حُفْرةً، ويدَاها
وردةً ذابِلَهْ.

بين وقتٍ ووَقتٍ، أحِسُّ كأنّيَ غَيْري
وأحِسُّ كأنّي دَمٌ يَتَدَفَّقُ ـ أتْبَعُ خيطَ التّدفُّقِ،
أسألُ: ما اسْمي؟
ولكي أتخيَّلَ ما سَيكونُ، أُخَيِّلُ أنّيَ أَضُمُّ بِلادي ـ
الحقولَ، الجبالَ، البيوتْ
وأقولُ: لكي أَتيَقَّنَ أنّيَ نَفْسيَ،
لا بُدَّ مِن أنْ أموتْ.

زَهَرُ الأقْحُوانْ
لا يَزالُ يُغنّي لموتي
ذاتَ فَجْرٍ، ويُؤْثِرُ موتيَ ليلاً
ليكونَ البياضَ الذي يَتَلألأُ في غُرّةِ المكانْ.

شُهُبٌ تَتَساقَطُ من شُرُفاتِ الفضاءْ
وأراها تطوفُ، ـ
إذن، أتقدّمُ، أسألُ عن حالِها
وأُحيّي خيالاتِها
وأقدّم جسمي لها
والغبارَ الذي ضمّه والرِّداءْ.

أعْطِني ما تَرسَّب في جَرّة الأزمنهْ
أعْطِني ما تَرَسَّبَ في الرّوح مِن تَعَبِ الأمكِنَهْ
أعْطِني كلّ هذي الثُّمالَهْ،
جَسَدي طافِحٌ بِسِواهُ.
جسدي كلّ بيتٍ
والشّوارع فيّ شراينٌ، والبحرُ نَبْضٌ:
هذه صورتي
وأنا هذه الرّسالَهْ.

جَسدٌ فاضَ عن قبرِه:
عَمَّرَ الأفْقَ داراً، وبالشّمس حَصَّنَ أسْوارَهَا.
ويقول أحِبّاؤهُ:
مُوغِلٌ في مداراتِه
يَتَهجّى الحقولَ ويكتبُ أزهارَها.

ـ هَلْ تآخيتَ مع صوته
وتنوَّرْتَ أغوارَهُ النّائيهْ؟
ـ أمْسِ ، كنّا معاً، وافترقْنا :
نجمةٌ مِن فضاءاتِهِ
أخذَتهُ إلى دارِها العاليَهْ .

«كان طفلاً من البحر، طفلاً صديقاً لأمواجِه
جسمُهُ لُجّةٌ
وخُطاهُ الشّواطىءُ مفْتوحةٌ »

. . . إنّها آخر الأغنياتْ
هل سمعتم صداها
يتردّدُ بين الحقولِ ، ويَشْرِدُ في غابة الذّكرياتْ؟

لم تمت أمّهُ :
شعرُها ابيَضٌ، لكنّ هذا اللّهيبَ الذي
يَتناسلُ في بيْتها

يَتناسَلُ في شَعْرها،ـ
أدْخلتْنيَ من أوّلٍ
عِبْرَ هذا اللّهيبِ وعِبْرَ الرُّمادْ
في بهاء السَّوادْ.

أيّ عِطْرٍ غريبٍ؟ سألتُ النّوافِذَ،
لا ياسَمينٌ ولا وَرْدَ في بيتِها،ـ
إنّه عِطرُها
طالِعٌ من خُطاهَا على الرّابِيَةْ
حين كانت تودّع أصْغَرَ أبنائِها
وتشير إلى شمسِه الآتيهْ.

كان في قبرِه
لابساً وجهَ طفلٍ ،
طفلُه كان يرسُم في غُرفةِ الخيالْ
صوراً للرِّجالْ.

لا تقولُ الأزقّةُ في حَيِّنا
كيف جاؤوا، ومن أين؟ رَمْلُ الزُّقاقْ
والزوايا وأسرارُها
والتمرّدُ، والخبزُ ـ تاريخُهم.
لا تقول الأزقّة غيرَ الفضاء الذي شاءهُ العِناقْ
بين أحلامهم وخُطاهُمْ،ـ
لا تقولُ الأزقّةُ إلّا الكلامَ الذي قاله الرّفاقْ.

كان مَيْتاً، يداهُ
مثلُ ظِلّ على وَجْنَتَيْهِ
وعلى وجهِهِ وَداعٌ .
مَن يقول له الآنَ : إنّي أراهْ
ملِكاً من ملوكِ الحياةِ، وإنّي
أتقفّى خُطَاهْ؟

سائرونَ إليه،ـ
وَطَناً يتوهّجُ بين الجراحِ
(الجراحُ مصابيحُنا)

سائرونَ إليهِ
عاشقينَ، سُكارَى إليهِ
نتقرّى، نُقلّب أحشاءنا . . .
مَن يقولُ الرّياحُ رَمَتْنا
خلفَ أسوارِه؟
ألرّياحُ خُطانَا إليهِ
والرّياحُ مفاتيحُنا.

لا تقولوا: قُتِلتُ. ولا تَندبُوني
إنّ موتي قميصٌ آخرٌ أرتديه،
وأنا والفضاءْ
جسَدٌ واحِدٌ
مِن هواءٍ ونارٍ وماءْ.

لِيَ في كلّ بيتٍ
واحَةٌ وسريرٌ.
أين جسمي، إذن؟
- «أخذتْه الحقولْ»
لم أقُلْ / ألزّهورُ،
العصافيرُ كانت تقولْ.

هذه قريتي / قُرانا
مُعجمٌ لِلصُّوَرْ:

صورةُ الزَّلْزَلَهْ

صورةٌ لانحناء   النجومِ على عتَبَاتِ البيوتْ،
وهي تزهو بأفلاكها؛

صورةٌ مُثقَلَهْ
بشفاهٍ تموتُ، بأنشودةٍ لا تموتْ؛

صورةٌ لِلْقمر
يَتعشَّقُ شمسَ النّخيلْ
خالِعاً ثوبَهُ
لِيكفِّنَ فيه الشهيدَ الجميلْ.

نَهَرُ الجُرْحِ فَيضٌ:
كلّ صَفْصَافِه
أذرعٌ من ضِياءٍ.
والسّماءُ التي تتَمرْأى
في تجاعيدهِ، غُصونٌ ـ
قَصَبٌ ناحِلٌ يتموّج في ضِفّتَيْهْ
وأنا نَايُها
أتجدّد في مائِهِ
وأسافِرُ مِنْهُ إليهْ.

أشعرُ الآنَ أنّي وُلِدتُ التقاءً
بين هذا التّرابِ وشيءٍ
قيلَ عنهُ: الشّرَرْ
أو عمودُ السّماءِ، الذي يَتراءَى
في حجابٍ من الرَّعْدِ، أو يتقمَّصُ خيطَ المَطَرْ.
أشعرُ الآنَ: وَجْهِيَ خَدّانِ ـ ضِدّانِ،
خَدّانِ ـ صِنْوانِ،
خَدّ الفضاءِ وخَدّ الحَجَرْ.

كان لي أن أشاهد صدرَ السّماءْ
حين فَكَّ الجميلُ المحجَّبُ أزْرارَها
ورَمَى ثوبَها غطاءً
لِسريرِ اللّقاءْ.

(٥ آذار، ١٩٨٥)

أغنيات

نشرت بعنوان: أغنيات إلى السيّد الجنوب (الكفاح العربي، ١٨/٢/١٩٨٥) أما «الاسم» فقد نشرت منفردةً بالعنوان ذاته. (السفير، ١٦ شباط ١٩٨٥).

أغنية إلى لحظة ماضية

مرّةً،
سألَ الله أعرابَهُ أن يجيئوا إليهِ
فرآهم
بَشراً من حديدٍ ورَمْلٍ
يَحملون على جُمْجُمَهْ
أرْضَهُ المُسْلِمَهْ.

أغنية إلى هذا الزّمان

أحمدُ، مريمُ، كريمُ
قرأوا ما يقول المكانُ وما يكتب المستحيلْ
وأتوا للنّخيلِ يهزّون جذع النّخيلْ:
رُطَبٌ يابِسٌ،
والمكانْ
في الجنوب شمالٌ، في الشمال جنوبٌ
والمكانُ كما خيّلوا ـ
خيّلوا أنّه السّاقُ والجذْعُ، واسْتَشْرفوا رياحاً
من جديدٍ تُلقّح هذا الزّمانْ.

أغنية إلى الزمن ـ الضدّ

لو تجرّأتُ، قلتُ: النجوم، السماء وتاريخُها،
الناسُ، واللغةُ القائمهْ
جُثَثٌ عائمهْ
لو تجرّأتُ، سَاءَلتُ: منْ يُحرَقُ الآن؟
ماذا يُسِرّ، بماذا يُجاهِرُ؟ هل
قال؟ هل كان؟ هلاّ؟
لو تجرأتُ، غنّيتُ للمدن الآفله
لِلرّماد المُدمّى، وللآلة الآكِلهْ،
ولأعلَنْتُ: هذي
آيةُ الوَقْتِ، أرضٌ
تتناسَلُ في جُثّةٍ، ورَبٌّ
علّقتهُ الجريمهْ
فوق أقواسِها، تميمهْ.

أغنية إلى الوقت

إنه الوقتُ، وقت الحصار، الذي لا يَرى
غيرَ هذا الدّم المتنقّل بين الشوارع،
ملْءَ البيوت الذي لا يرى
غيرَ هذا التفجُّر في جسدٍ لا يُرَى،
وأقول لوجه الجنوب: توجّهْتُ
أنّى توجّهْتَ أتْبَعْكَ، تمضي
وأمضي إليّ مثلَما
وتقود خُطايَ إلى كيفَما
وتوجّه ناري إلى ما يُزلزل، يومىء لي. . . رُبّما.

أغنية إلى المعنى

ليس هذا زمانَ البدْاءِ ولا آخرَ الأزمنهْ
إنّه نَهَرُ الجرحِ يدفقُ من صدر آدم، ـ
معناهُ يُوغِلُ في الأرْضِ،
والشمس صورتُه المُعْلنهْ.

أغنية إلى زينب

حضَنَتْ زينبُ طفلَها
تَتَنوّر سِرّ اللقاء وعرْسَ اللقاءْ
بين تاريخها والبُكاءْ .

أغنية إلى بضعة حروف

كان للميم أن يصنع القافَ جسراً
ويعمّر للواو بيتاً
من ضياءٍ وحبٍّ،
كانت التّاءُ تربو وتعْلو،ـ
إنّها اللغة الهاديه
والقُرى تتفتحُ، والقلبُ يقرب من داره النّائيهْ.

أغنية إلى فاطمة

فاطِمَهْ
تُنزِل القمرَ السّاهِرَ المتمرّد من بُرْجِهِ
وتقود خطاه إلى بيتها
وتَمدُّ له كي ينامَ رفيقاً لطفلتها النّائمهْ.

أغنية إلى المائدة

للصداقة بيني وبين الجنوب، وأحزانِهِ العائده
كتبٌ، وثيابٌ
نسجتها البيوتُ، الرياحُ، العناصِرُ/
لا تهدمِ القاعِدهْ
ابتهجْ واقتحِمْ
وادْعُ مصباحَ هذي الدروب لكي
يَرْئسَ المائِدهْ.

أغنية إلى الاعتراف

ابْتَهِجْ واعترفْ
للجنوب، لشمسِ الجنوبِ، لنيرانِ
أحشائِه المُضْمَرهْ
والكلامُ الذي لا يُقال اعترافٌ
وأقول الوصولُ قريبٌ قريبٌ
وأرى قامَةَ الموتِ محنيَّةً
وأقول التواريخ تزهو وتقطف أعشابَها المُسْكِرهْ.

أغنية إلى المسافات

نشوةٌ/ موجةٌ بادِئَهْ
في شواطىء من لهفةٍ،
مرحباً، يا ضياءَ المسافات، لن أقطعَ الخيط
بيني وبينك، أحزانُك الدّافئهْ
تتسرّبُ في خطواتي
مرحباً، أيّها الخطوات التي تتخاصَرُ في كلماتي.

أغنية إلى اللغات

كل تلك اللغات ـ الشظايا، خمائِرُ
للمدن المقبله
غيّروا بنيةَ الاسم والفعل والحرف، قولوا
لم يعد بيننا حجابٌ
لم تعد بيننا سدودٌ،
واشرحوا صدركم
بالفواتح من سُوَرِ الرّغباتِ،
وجنّاتِها المقفلهْ.

أغنية إلى أحمد ومريم وكريم

أحمدُ، مريمُ، كريمْ
قمرُ السيّد الجنوبِ يزورُ بيوتاتِهم
ويُقبّل أحجارَها،
قمرُ السيّد الجنوب يعلّق فوق العرائِش قفطانهُ
قمرُ السيّد الجنوب يكرّر ميثاقه
للحقول وأزهارها،
ويصلّي صلاةَ الشروقِ على وردة الغروبْ
قمرُ السيّد الجنوبْ.

أغنية إلى عاشق

النّجومُ كمثل الثقوبْ
في فراش أحبّائهِ - خُطاهُ
شجراتٌ تمدّ إلى البحر خدّاً
وإلى جبلٍ يتوضّأ بالبحر خدّا،
وتمدّ على الهاويه
جسرَ آفاقِها،
وأنا الرّوايهْ
أتحدّث عن عاشقٍ في الجنوب،
وعن عاشق الجنوبْ.

أغنية إلى ميّت

دَمُهُ يقطرُ الآنَ من وردة الفضلة،
من حروف النّحاسِ ومن كلمات الحديدِ،
وموعظةِ الكيمياءْ:
ليس موتاً كموتي كموتكَ، هذا
مَوتُ أوهامِنا،ـ
دمهُ الآن سجّادة للسّماءْ..

أغنية إلى هو

لم أقلْ يا أخي أنتَ ميتٌ
قلتُ تمضي ، وتعرف ماذا سيأتي
وانتهت خطواتك، لكنّ ظِلّكَ ما زالَ
يمتدُّ طِفْلَ اليدين، تُرى أنتَ حيٌّ،
وعيناكَ عينايَ، والموتُ ما بيننا مرايا،
وأرى ما رأيتَ، أترجم نفسي لنفسي:
أتُرانا دمٌ واحدٌ؟
نتقاسَمُ خبزَ الفجيعةِ والحبِّ، خبزَ الحياةِ
غريبينِ، مُسْتَضعفينْ
وأنادي: أنا كربلاءُ الحنينِ،
وتصرخُ: يا سيّدي الحسينْ.

أغنية إلى الجرح

أحمدُ، مريمُ، كريمُ
نزلَ الموت في حيِّهم
يتسقّط أحلامهم
يتصيّد آخرَ ما يتوالَدُ في ماء أحلامهم،
غيرَ أنّي أنا الرّوايةْ
سأقول لكم ما رأيت على الضفّة الثانيه:
كلّ يومٍ يُغنّون للشمس كي تترجّلَ عن سرْجها
وتفيءَ إلى ظِلّهم،-
عشقت قوسَ أهدابهم
عشقت كحلهم
عشقت لونَ حِنّائهم،
وأراها

جمعت كلّ أعنابها، ورَمَتْها
قطرةً قطرةً في خوابيهم،
وأقول ـ أنا الرّوايةْ:
هكذا ينسج الزّمان خطاه بأشلائهم
ويمهّد أشلاءهم
طرُقاً لخطاهم:
إنّه اللّعِبُ ـ الطّفل، نردُ الرّياحْ
ولهم ما يلقّح جذع المساء بنسغ الصّباحْ
ولهم كلُّ هذي الحقولِ، لهم كلّ هذا اللّقاحْ.

أغنية إلى فلّاح

خوذةٌ؟
باطِلٌ زعمكم
هذه آخر البرتقال الذي كان يسكن في حقلِه.

أغنية إلى ما تشاء

كلّ شيء يليقُ / ابتكرْ ما تشاءُ ـ
المضارعُ ماضٍ،
والذي لم يكن كانَ،
والغيبُ حِسٌّ،
واضطربْ مثلَ لُجٍّ
إنـه الحبُّ يكشف عن شمسكَ الغائره
في تجاعيدكَ النافره.

أغنية إلى الخيال

كان للعين أن تتصيّدَ من غابة الخيالْ
كلّ ما خطّطوه وما اجترحوهُ
ضدّ تلك الوحوشِ التي سُمّيت واقعاً،
لم أكن شاهداً، كنت أصغي
من بعيدٍ بعيدٍ،
للصخور التي تتحدث عن أوّل الرّجال،
وعن آخرِ الرّجالْ.

أغنية إلى الكتابة

بعد هذا وهذا وهذا
لا الشوارع ماتت، ولا الموتُ تذْوي
رياحينهُ
والغرائبُ ليست نقيضاً لما قُلتُ/
قلتُ الكآبهْ
دفترٌ آخرٌ للكتابهْ.

أغنية إلى السرّ

أتركُوه لأسرارِه :
مرةً يُجلس البحرَ في حضنِه
مرّة، تحت شُبّاكه،
اتركوهُ لأسرارِه :
يتقنّع بالعشب، أو يتلبّس وجه الحَجَرْ
اتركوهُ لأسرارِه حَقلَ حبّ
يتحوّلُ في كلِّ فصْل
ويقلّب في راحتيه الشّجَرْ.

أغنية ثانية إلى هو

طوّقوهُ بأهدابهم وأفاؤوا عليهْ
هُو فيهم كروحٍ ترفرف، والحبُّ
كالعرش، والشمس مجمرةٌ في يديهْ
وحواليه، تعلو أساطيرُهم، ـ
كيف، أنّى ومن أين أدخل في ذلك الزّحامْ
وأنا لستُ إلاّ المحدِّث والراويه
لستُ إلا الصّدى
يترصّد في بابه النبويّ ـ الصّدى،
واحتضارَ الكلامْ.

الاسم

كان هذا الذي يتغطى
بالرماد (يغني
للرماد وأسرارِه
يتموج ، يعلو. . .)
والذي نَتَمرأى
في جراحاته، ويُمَرْئي
في عذاباتنا وجهَهُ،
والذي عاش في نَسَمٍ من حنين،
والذي قيل في مَدْحِهِ ـ التبغُ والبرتقالُ، الجراحُ
وأشجارُها،
الرفضُ والجامحونَ، الذي لبستهُ النجومُ
لتدفأ، والريحُ كي لا تكون عقيماً،

والذي حضنتْهُ بساتينُه
وقراهُ، وفلاحُهُ، والطفولةُ، والعاشقاتُ
وعشاقهنَّ،
الذي جاء من عَتَماتِ الدروب، وجاءت إليه
الدروب،
الذي يُقرىء البحرَ ما كتبتهُ الحقولُ.
الذي قيلَ: إيقاعُهُ
نبضُ شطآنِهِ،
قيل: أحراشُهُ مِنْجَمٌ لأساطيرِهِ،
والذي قيل: مِحراثُهُ
كي يفتِّقَ صدرَ التراب، ويوكِل للشمس
إكسيرَهُ،
والذي كان يكمنُ للموتِ في وردةٍ
(حين لا يتيسّر أن يُجلس الموتَ في حضنِهِ)
والذي لم يقل مرةً: يائسٌ
والذي عاش في البرد والحر دهراً
ليقلّمَ زيتونة
أو ليجْنيَ تفاحةً

كـان هـذا الـذي جـاء من عَتَمـات الـدروب، وجـاءتْ إليـه الدروب

كان هذا الجنوبْ
سيداً، جامحاً مثل موجٍ
صامتاً مثلَ صخرٍ،
لم يَفُهْ مرةً باسمِه
(الشمال اسمُهُ
بعلبكُ وبيروتُ والأرزُ والفقراءُ اسمُهُ)

كادَ أنْ يَمَّحي
خاشعاً في رداء التواضُعِ، كي لا يُقالَ: الجَنوبْ

(لم يَسِرْ في بيانٍ ولم يتوكأ على تورِيَةْ
كل ما قالهُ هذه الأغنيةْ:

«شجرُ البرتقالْ
مُثقَلٌ بالقنابِلِ والرّاصدينَ،
فكيفَ سيهربُ هذا الدخيلُ ومن أيْنَ؟

لا منفذٌ في السهول،
ولا عاصمٌ في الجبالْ».

كان هذا الذي ينحني خاشعاً
للذين يموتون كي يفتحوا الدروبْ،

كان هذا الذي كاد أن يمّحي
في رداء التواضع كي لا يقالَ: الجنوبْ،

كان هذ الجنوبْ.

(١٦ شباط، ١٩٨٥)

حالات

حالة غطاء

حينما تفتحُ الشمسُ مُخدعَها للمساءْ
تَتَراءَى النَّوارِسُ منسوجةً غِطاءْ
فوق وجه السَّماءْ.

حالة شيخوخة

كلّما قلتُ: شيّخْتُ، واستنفدتني الجراحُ،
رَجّني عاصِفٌ، وكساني
بتقاطيعِه الصَّباحُ.

حالة غيمة

غيمةٌ من كلامٍ
تتبخّرُ من جثث الأنبياءْ
وتغطّي الفضاءْ.

حالة لحظة

وُلدت لحظةٌ
من زواج المدينة والرّفض، زوّجتها
لفضائي، وأعطيتها خاتمي، ـ
كلّما ضاقتِ الأرضُ، أيقظتُها
وهي الآنَ في زَهْوِ إيقاعِها
وهيَ الآنَ تحيا معي.

حالة نبع

مَنْفِيٌّ هذا النَّبْعُ، ومَنْفى
لِلظَّامىءِ هذا الماءُ، وهذا المَجْرى -
في الكَلمات وفي الأشياءْ
أَيَخُونُ النَّبْعُ، أيَمْحو
ما يكتُبُهُ قيثارُ الماءْ؟

حالة وردة

أخَذَ الموتُ يَقْربُ، يهبط في الماء، يلتَهِمُ الآنِيَهْ
لم تَجِدْ وَرْدَةُ الآنِيَهْ
غيرَ أن تَنْحني:
تَتلاشى، وتُسْلِمَ للموتِ أوراقَها الحانِيَهْ.

حالة كرسي

أطرافٌ أربعةٌ
لكن لا أعرف أيّهما
رجلاك، وأيّهما
زنداكَ، ويبقى
أن أشهدَ: أنتَ الأكثر صبراً
من أطراف الإنسان، وأنت الأبقى.

حالة الصّحراء/النرجس

للماء نايٌ كنت أسمعه وأسمع شهوتي
لغةً تأخّرَ وحيُها
وتجيءُ بين هنيهةٍ وهنيهةٍ
غيّرتُ قافلتي، ـ الخليقة طينةٌ / نَرْدٌ، سألهو
بسريرتي وبِنَرْدِها.
وأنا الذي ولدته صحراءٌ / أيائلُ حلمِه
مكسوّةٌ بنخيلها
وسُدى لعبتُ النّردَ مع قَمَرٍ، وطفتُ على بساطٍ
من سندسٍ،
وسُدىً أملتُ بما يقول غرابُ ظَنّي،
أو بما يَعِدُ الخرابُ
يا شعرُ، يا حوذيّنا المجنون خُذْني/

خُذْنا لنسبقَ موتَنا
لِنَرى، لنكتُبَ ما سيأتي
ونكونَ فاتحةَ الكتابْ.

صحراءُ - أمٌّ
وأنا الشهادة، ضائعاً
يهذي كمن يمشي على
أشلائِه
يمشي ويرتجل الفضاءْ.
وأنا الشهادة، أرضنا
طمست
لكثرة ما تراكم فوقَها
من أنبياءْ.

صحراء - سرٌّ:
هذا هو السرّ المبينُ،
سحابةٌ
تلقي عباءتها عليَّ، حفيفُها
لغة النجوم الآفله،-

تِيهٌ، وقافلةٌ تضيِّع قافله.

صحراء ـ تلمسني حَصاةٌ: أنتَ أنتَ،
وألمس الرّملَ الصّديقَ: أألنتَ أنتَ؟
شرارُكَ التهمَ الشّرارا،
صحراء ـ تحمل نخلةً
نجماً، وتحمل ناقةً
قمراً، وتبتكر الصّحارَى،

صحراء ـ نرجسها يغوصُ، يعوم في تيه المرايا
متكسّراً:
صوراً يراقصها ويبكيها ويرسم وجهه
فيها، يُفتِّت بعضَه بعضاً،
يُجنُّ بهذه الصّور ـ الشّظايا
نَسَجَ النّهارَ بليلِه
حلماً أحبُّ لكي يُضيءَ، لكي يموتَ /ونرجسٌ
هذي البقايا
لا، ليس نرجس غير طَيْفٍ
لا، ليس هذا الطَّيفُ غيرَ بكائِه

صحراء تلتهِمُ الفضاءَ، وليس نرجس غيرَ قَبْرٍ، ـ

هوذا أراه، كما روت أحلامُه
نسيَ الطّريقَ لمائِه، نسيَ الكلاما،
هوذا أراه متوّجاً بِسرابِه
أعطى لأطراف السّماء يديهِ، مِن تَعبٍ، وناما. •

الولد الراكض في الذاكرة

قَوْسُ رَيْحانٍ عريشٌ من حَمامٍ
والشّبابيكُ رمت أبوابَها
لِيدِ الرّيحِ / الحقولْ
قريةٌ منَ سَعَفِ النَّخْلِ ومن حِبْرِ الفُصولْ.

غضبُ الرّعْد ولُطف الغَيْم فيها ربّياني
قريةٌ نسهر في سِروالها
ويبوحُ التّين والتّوت بما تخجلُ منه الشّفتانِ.

في أعالي شَجَر النَّخْلِ نمت ذاكرتي
هوذا السّمّاق نجْنيه وهيّانا البقولْ

ونقول التّابِلُ الطيّبُ لن ينقصنَا هذي العشيّةْ
هوذا يحتضن النّسرينَ طِفْلٌ
كي يردّ الورْدُ لِلْوَردِ التحيّةْ.

في أعالي شجر النّخْل نمتْ ذاكرتي
إنه النَرجسُ يأتي حافياً
ما الذي يشغلهُ
والرّفيقُ العشب يعطيني ذراعيه وأُعطيه قميصي
وتغطّينا يدا زيتونةٍ
ليَ في دفتريَ الأخضر شُبّاكٌ وفي الأزرقِ وَعْدُ
لِيَ في محفظةِ الشّمس كتابٌ...

في أعالي شَجرِ النّخل نمت ذاكرتي
نبعُ صَفْصافٍ، بُكاءٌ
أتُرى أسمع للجنّ عَزيفاً
أمْ هيَ الأغصانُ موسيقى؟ تَرنُّمْ

أيّها الصّفصافُ وامنحنيَ أن أصغي إليكْ
أن أرى وجهيَ مرسوماً عليكْ
هاجساً يَقرأ صوتَ الماء في صمت الحَجَرْ
ودماً يكتبُ / في أوراقِه
مَطرٌ يمشطُ أغصانَ الشّجَرْ.

هَبَطَتْ ذاكرتي
مِن أعالي شجرِ النّخلِ /سلاماً
لِلصّديق الولد الرّاكِضِ في ذاكرتي
لم يَزُرْني اليومَ لم يُومىء إليّ
مثلمَا عَوّدني ـ أسْلمتُ وجهي
لِمراياهُ: مَنِ الضّائعُ مِنّا؟
ومَنِ الصّامِتُ والنّاطِقُ؟ غامَت
شفتاهُ ـ أتُراهُ ساكِنٌ في شفتيّ؟

أيُّهذا الولَدُ الرّاكضُ في ذاكرتي
جُرحيَ النّازف يَسْتعصي ولكن

جسدي يَنمو ويزهو
فأنا والبحرُ في الموت سواءْ
وأنا قبّرة الحزْنِ أنا ذِئْبُ الفَرَحْ
أيّها الطّالِعُ من هذا الفضاءْ
أنتَ جرحٌ آخَرٌ ينزفُ أم قوسُ قُزَحْ؟

هبطَتْ ذاكرتي
مِن أعالي شَجرِ النّخْل / سلاماً
يا شبيهي الولدُ الرّاسِبُ في ذاكرتي
أنت مَن يَجمحُ في نَبْضيَ أم أنتَ الحريقْ؟
وسلاماً أيّها الطّيفُ الصّديقْ
عشْتَ محمولاً على نَرْدٍ وسمّيتَ القمر
فَرَساً حيناً وحيناً فارساً
كانت الشمس تؤاخيك وتبني
معكَ البيتَ الذي تبنيه من قَشٍّ وتلهو
بالحصى مثلَكَ/لو تعطينيَ الآنَ يَديكْ. . .
وسلاماً

أيّهذا الشّجر المائلُ في ذاكرتي
أأنا نُطقكَ أم صمتكَ أوْ ما تنقلُ الرّيح إليكْ
مِن غُبارِ الشّجر الآخرِ؟ لَو تعطينيَ الآنَ يديكْ
لو يقول الأفُق السّاهِرُ في ليل رؤاكَ السّاهره
ما الذي تمْخُضُ في غابةِ أيّامي رياحُ الذّاكره...

في أعالي شجر النّخل نمت ذاكرتي
لم أكن أعرفُ أنّ الجسدَ العاشِقَ مرسومٌ بمنقارِ سنونو
لم أكن أعرف أنّ الحبُّ لا يعرفه إلاّ الجنونُ

لِمَن النّجمةُ تُرخي شعرَها
وتلاقيها إلى البّيدرِ أفراسُ التّعَبْ
بين عينيها طريقٌ ويداها
خَيْمَةٌ...

حَقًّا؟ خُذيني
... / حوضُ أحزانٍ وماءُ اللّيلِ /غُصْنا

واقتسمْنا قمرَ الماء، يقيناً
تحلم النّجمةُ أن تسكنَ بيتاً مِن قَصَبْ.

(بيروت، أيار، ١٩٨٢)

شطح

لِملائِكَ من فضّةٍ ورصاصٍ
لِرمالٍ تجرّ جلابيبَها الذّهبيّةْ
تَتَهاوَى وتنشجُ في قَفَص الأبجديّه،ـ

ـ إنّها أرضهُ الرّثةُ النّازِفَةْ
مثلما يفقد النّهر مجراهُ، والبرقُ
شعلتَه الخاطِفَةْ
وأراها تَنامْ

غيرَ أنّي أواجهُ هذي الصّحارَى كأنّي فجرُ الكلامْ
وأقولُ بلا دهشةٍ
زمَنٌ شَهْوةٌ وأرامِلُ من معدنٍ
والمكانُ انشقاقٌ

ـ دائماً كان هذا المكانُ انشقاقاً
وخرائطَ من طُحلبٍ وغبارٍ،
دائماً كان هذا المكانُ
يَتَكسّرُ في قبضتينْ
مِن حصارٍ وفَتْكٍ. . .

غيرَ أنّيَ أُواجه هذا المتاهَ كأنّيَ فجرُ الكلامْ
وأقولُ بلا دهشةٍ
ظَهرتْ نجمةٌ أكَلتْها
غَلةٌ
وأُكرّر أنّ الدّخانْ
عُرُسٌ للرِّياحِ ـ اقْبَلي ما تَبقّى
مِن دمي : وَرْدتين ـ
قَلَقي وحنيني
وَانْسجي يا رياحُ مناديلَكِ الخفيّةْ
منها، ولتكن باسْمنا تحيّه
للرّحيلِ وأطلالِه العَربيّةْ.

وأقول بلا دهشةٍ
وَطَنٌ بعضُ ظَنٍّ، وهو الآنَ. . . .

- لا تتفوّهْ
أتُرى ضَلّلَتْكَ الرّؤى أم جُنِنْتْ؟
وهو الآنَ مقبرَةٌ: شُرَطِيٌّ
مِن حديدٍ، وَوَأْدٌ، ومِن أين أنتْ؟

و عبرتَ هنا أو هناك الحدودْ
رأيتَ الذين يتوقونَ لِلنّورِ يُطْوَوْنَ طَيَّ الثياب ويُرمَوْنَ في دَرَكاتِ الظّلامْ
لَتمنّيت ألّا يعودَ الكلامْ
غيرَ هَدْمٍ ونارٍ
وَلمزّقتَ هذي الخرائطَ هذي البنودْ
ولَجذّفْتَ مثلي
وطَنٌ بعضُ ظَنٍّ. . .

وأقول بلا دهشةٍ
أُلملايين خضراء والصّوت منها ومنها الصَّدى
وأنا ذِئبُ هذا المدى
وحديَ الهالك المتخبِّطُ لا كوكبٌ لا هُدَى
ضائعٌ بين حَقْلٍ وحَقْلٍ
أتقرّى عروقَ النباتِ وأسأل عن زَهْرَةٍ أختَها

وأقول بلا دهشةٍ
وأتِني يا زمانَ التّعبْ
صِرتُ أهوى الجلوسَ إلى صَخْرَةِ المستحيلْ
مثلَ طِفْلٍ يحبّ الرّحيلْ
في الفضاءِ على صَهْوةٍ مِن قَصَبْ.

ـ لا تقولوا: هروبٌ ويأسٌ
تَهربُ الرّيحُ كي تحضنَ الأرضَ
واليأسُ يفتح أبوابَه الملكيّةْ
لانفجار المداراتِ، قولوا: نذيرٌ

واسمعوا الشّاهدَ المُغطّى
بجذوعِ النّخيلْ
واقرأوا الشّاهِدَ المُدوّنَ بالتّمْرِ والزّنْجَبيلْ
في صحائِفِ إسْتَبْرَقٍ. . .
وأقولُ بلا دهشةٍ لِلنّدى
هل رأيتَ المكانَ خبرتَ الحقولْ
بَشَرٌ هؤلاء الذين يُغطّونَها أم بُقُولْ؟
هكذا أتجرّأ أن أعشقَ النّدى
وَأُغنّيه، ـ يَجْري كأنّ السّحَرْ
ضِفّتاه
ويَفضّ حقائبهُ كالرّسائلِ بين غصون الشّجَرْ
ما الذي حملتْهُ يداكَ؟ لِمن يكتب الأفْقُ أسرارَهُ؟
والطّريقُ الذي يَتطاوَلُ في ضِفّتَيْكَ ـ دَمٌ آخَرٌ،
أم بريقٌ يغامِرُ، أم شاعِرٌ يُحْتَضَرْ؟

وأقول بلا دهشةٍ
عَجَبي أنّني لم أُشَيَّخْ
عَجبي أنّ هذا الحطامْ

لم يَزِدْنيَ إلاّ بهاءً، ـ
ـ هي ذي وَرْدَةٌ تتشهّى
أن تكون امْرأةْ
بين أحضانِهِ
ـ هيَ ذي تتوهّجُ نيرانُهُ المُطْفأةْ

وأنا الآنَ طِفْلٌ كأنّ القمر
جَرسٌ في خُطايَ / بلا دهشةٍ أقولْ
لي هوايَ ولي سَكْرةٌ لا تزولْ
والحروف نساءٌ تُوَشْوِشني ما تُحبّ وأمْنَحُها شَطَحاتي
ونَقيًّا من الوَهْمِ أَجْهرُ هذي حياتي
شَرَرٌ وخيولٌ من الضّوء تُفْلِتُ مِن عربات الصُّوَرْ.

اسماعيل

مُتدثِّراً بدمي، أسيرُ ـ تقوُدُني
حُمَمٌ، ويهديني رُكامٌ، ـ
بشرٌ تموج حشودُهم
طوفانَ ألْسنةٍ: لكلّ عبارةٍ
مَلِكٌ، وكلٌّ فمٍ قبيلَهْ.
... وَأنا الذي نبذتهُ كل قبيلةٍ[1].

وخَرجتُ تحضنني الجراحُ، وأحضن الأرضَ القتيلَهْ،
أبْني خياميَ في دمي
وأقول لإِسْمي أن يلمّ دفاتري

](١) يمشي وحيداً
يمشي أمام زمانه.

من بيت اسماعيلَ[٢] /

(اسماعيل يطفو
صحراءَ[٣] من كتبٍ تموتُ، وفوقهُ
قمرٌ تقلَّدَ سيفَهُ
وَمضى يجرّ نياقَهُ . . .)

/ . . . وأنا الذي نبذتْهُ كلّ قبيلةٍ[٤]

أتَسَقَّطُ الشّرر الدّليلَ / بناتُ نعشٍ
يرقدن في زغَب الظلام / رأيتُ وجهيَ شامةً
في ضوئهنَّ، رأيتُ موتي
طيْراً على كتفِ الظلامْ،

(٢) لو كان اسماعيلُ حقلاً، لسكبتُ غيميَ فوقهُ،
لو كان إعصاراً لكنتُ لِعَصْفِه أفقاً، وكنتُ خليلَه . . .
(٣) صحراءُ ـ عِقْدٌ من رمال، والقوافلُ خيطُهُ . . .
(٤) عبثاً تُسائلُ عن صديقكَ / ماتَ،
وَالبيتُ الذي آواهُ ماتَ / احْفرْ طريقاً
للقائه، في قلبك الباقي ـ ولكن
أتظنّ أنّ القلبَ يبقى؟

والرملَ يرتجلُ الكلامْ .

في الجانب الشرقيّ من نهْر الفراتِ لقالِقٌ
حَملتْ مفاتيحَ الرّحيلِ ، وقوّضت
أعشاشَها ،
في الجانب الغربيِّ ، ينْهضُ هيكلٌ ـ
ثدْيان ينتفخان قشّاً .

/ . . . وأنا الذي نبذتْه كلُّ قبيلةٍ
هوذا تُفرّقني يدايَ / دمي يُحاربهُ دمي
جسداً يُمزَّقُ في جسَدْ
والحبّ لا أحدٌ ، وموتيَ لا أحَدْ[٥]

منْ أنتَ؟[٦] يصرخُ بي حطامي
ويكاد ينكرني كلامي .

(٥) لا ماءَ يعرف أين صحرائي ، وكيف أذوقها .
(٦) ألقي بأسئلتي ولا ألقى جواباً . .

نارٌ تجيءُ إليهِ من أرضٍ تعومُ، تنامُ تحتَ وسادهِ

> نارٌ تجيءُ اليه من أرضٍ تعومُ على رؤوسٍ
> حُشيت بألسنةٍ ـ خليقةِ خالقٍ يُملي الدماءْ
> كتباً، ويثبت ما يشاءُ لها، ويمحو ما يشاءْ
> نارٌ تجيءُ اليهِ من أرضٍ تعومُ ـ يكاد يأخذه الشرارْ
> من أين يخرج ـ كيف يخترق الحصارْ؟(٧)

ودّعتُ/أذكر قاعداً
في بيت اسماعيلَ(٨)، ـ يربطُ صخرةً
بسحابةٍ
ويشجُّ بالحَجَر النجومَ، ـ يعيشُ بين سلاحفٍ
شطحت، ونامتْ.
ودّعت/أذكرُ هودجاً

(٧) يُعطينيَ الشجرُ الكريمُ رداءَهُ
ويمدّ لي نجمٌ يديهِ. . .
(٨) أحلام اسماعيلِ جاثيةٌ، وجبهتُه ترابٌ/
ما كان اسماعيلُ إلاّ
صوتاً يقاتلُ بعضُه بعضاً، وليس له فضاءْ.

يهذي[٩] بسيدتي، وأذكر أمّةً
تهذي بآخرِ ما تبقّى:

وحشٌ بلا رأسٍ، يُتوّجُ نفسهُ
ربّاً، ويبسطُ ظله
وَطَناً كقبعةِ المهرّج.. /(ظِلّهُ[١٠].
أرضٌ تمدّ حقولها سُرُراً، وتُهدى...)

ودّعتُ، وارْتَسمَ الأفولُ على جبيني
ومنحْتُ للزّمنِ المفتّتِ نبْرتي
ومنحتُ نبرتَهُ يقيني.

(٩) طِهْماأُزْباي -لم يَزَلْ يهذي بذبح شقيقِهِ
ويقتل كل مخالفٍ.
(١٠)... ولظلّهِ
عَسَسٌ، وينْكجَريّةٌ..

/ . . . والأرضُ[11] تدخلُ في السُّعال المعدنّي / شوارعُ
رُصِفَتْ بأطفالٍ ـ ذبائحَ[12] / أمَّةٌ
تزهو بِعرشٍ من عِظامٍ[13].

إذهبْ وطُفْ /
فِكرٌ كأسماكٍ مُعفَّنَةٍ، مدينةُ أَلْسُنٍ
قُطِعت وَدِيسَتْ.
إذهبْ وطُفْ، وَسَلِ الجذورْ
كيف ارتدَى جسَدُ المكانِ وحوشَهُ
أوْسَلْ غُرابَ الأبجديَةِ ـ جِسمَ إسماعيلَ، (إسماعيلُ
خارطةُ العُصورْ).
إذهبْ وطفْ /
إفتَحْ هنا رأساً، هنالك فكرةً

(١١) أرضٌ من الأنقاض / غاب قبائلٍ ومذابحٍ
أرضٌ تتوّج عصرنا
مَلِكاً علي عرشٍ الخرافةْ
أرضٌ توسّعُ بين خطوتنا وهولِ جَحيمنا، هَوْلَ المسافةْ.
(١٢) ذَبحٌ، وجلادون يقتسمون جِلدَ ذبيحهِمْ.
(١٣) أهدى قرقْماسٌ لزوجتهِ سواراً.
من عظمِ طفلٍ.

ستری لوجهكَ صورةً مجهولةً
وترى ثيابك فوق جسْمٍ غيرِ جسْمكَ. ربمّا
صادَتْكَ أنيابٌ لها
لغة الملائكِ، أوْ لهَا
شكْلُ السّماءْ
إذهبْ وطُفْ/
سَترى خنازيراً يُحوّلها الكتابُ الى ظِباءْ.

... / ونخافُ من جَسِّ الرّغيفِ، وما نقولُ لقاتلٍ
نَسَجَ الدّماءَ وسائداً؟[14]

مَنْ أنتَ إسماعيلُ؟[15] نازِفةٌ خُطاكْ

(١٤) إجراءُ سلطانٍ/ أأنت مُغفّلٌ
أمْ جاهلٌ لتقولَ: لا؟
(١٥) هل كان اسماعيلُ قافلةً
ترى الضدَّ الجميلَ، وتصطفيهِ اخاً لها؟
هل كان يرفع رأسهُ
قوساً لموكبِ قلبِهِ
ويرى السماءَ طريدةً لخيالِه؟
هل قادهُ غيبٌ الى اسرارِه، حقاً، وطوّف باسمِه

كُتباً يُلَملِمُها حُواةً

في كلِّ حَرْفٍ حُفْرةٌ
في كلِّ فاصلةٍ سَرابٌ
حَشْوٌ، وَرَجْمُ خرافةٍ، ـ

لم تُبْقِ عندكَ لي مكاناً ليخيطَ حبْريَ ثوبَهُ
لِيُؤاخيَ اللّهَبُ المحرَّرُ ما أُحِسُّ وما أقولُ/ شَطَرتَني
وفصلْتَ بين دمي وبيني، ـ
مَنْ أنتَ إسماعيلُ، كيف أراكَ لَحْظَةَ لا أراكْ؟

لكنَّ إسماعيلَ جرحٌ وأنا رفيقُ عذابِهِ، ورؤايَ حانيةٌ عليهْ وأنا رسالةُ مُنتَمٍ ـ لا مُنتَمٍ، كُتبت اليهْ.

/ . . . والأرضُ تدخلُ في السُّعالِ المعدنيِّ /

حبٌّ لوجه الحبِّ ـ يقرأ في الشعائر حُلمهُ؟
هل كان اسماعيلُ ظنّاً، أم كان إثماً؟

نبيُّها هَيُّ بُنُ بَيٍّ[١٦].

والأمةُ انحسرتْ وذابت
في جـدولٍ وحـلٍ يسيـلُ يـذوبُ في هيَّ بنِ بَيٍّ.

يا شمسُ، يا قدمَ النهار، تركت ليلَكِ عندنا
ونسيته..

ـ منْ أنتَ؟
ـ من تميمٍ.
«ولَوْ أنّ بُرغوثاً على ظهر قملةٍ
يكـرّ على جَمْعَيْ تميمٍ، لَوَلّتِ»[١٧].

ـ لا، لستُ من تميمٍ.
ـ من أنتَ؟ تغلبيٌّ؟

(١٦) هيُّ بنُ بيِّ آلةٌ
لا شيءَ يقدر أن يترجمَ سِحرها.
(١٧) كُجُكُ ـ يسنّ حرابَهُ
هدَمَ البيوتَ لكي يُقيمَ حصونَهُ.

ـ لا ، لستُ تغلبيّاً[١٨] .

. . . / والأرضُ تدخل في الشّمالِ المعدنيّ / نبيُّها هَيٌّ بْنُ بيٌّ[١٩] .

مَنْ أنتَ إسماعيلُ؟ مَسْرحُنا[٢٠] يواصلُ عَرْضَهُ
ـ «من أجل مجدكَ في العُلَى!»

عُنق القذيفةِ كاهنٌ
يصلُ الزّمانَ بخيطهِ
ويَخيطُ سِرْوالاً لكلّ دقيقةٍ
ـ «من أجل مجدكَ في العُلى!»

(١٨) كُزْلاَرُ آغا ـ قال: أمْوال الصناجقِ للأميرْ
أخذَ السبايا واشترى
تعيينَه بالمال / قرهادٌ خليفتهُ الصغيرْ.
(١٩) جاؤوا بآخرِ من تبقّى
ـ جاؤوا بأرجلهمْ، وجاؤوا
بأنوفهمْ: حكمٌ بهِ طوْمانُ أفتى.
(٢٠) حفْلٌ /
وتشربُ كلُّ جمجمةٍ سُلافةَ حبّها من جوف ميتٍ.

مَنْ أنتَ إسماعيلُ؟ (قيلَ الشّمسُ عندك جَمرَةٌ، والأرضُ صَحْنٌ. . .)

هل أنتَ قلْعةُ ساحرٍ، أم رأسُ غُولٍ؟

ـ «من أجل مجدكَ في العُلى![21]»ـ

رئةُ العصور تمزّقَتْ
والأرض خِرقَةُ حائكٍ.

(٢١) زبدٌ. . . /واسماعيلُ يطفو
جبّانةٌ تجترّ موتاها وتسكبُ ريقها
مَرْثيةً، ـ
والأرضُ تدخل في السُّعالِ المعدنيّ/نبيُّها
هَيٌّ بَنٌ بيٌّ.

مُتَدثِّراً بدمي ، أسيرُ ـ تقودني
خُمَمٌ ويهديني حُطامٌ ـ
حَفلٌ تخصّ به الإبادَةُ نسلَها
حَفْلٌ لاسماعيلَ يختتِمُ الزمَان (تُراهُ يفتتحُ الزمانْ؟)
حَفْلٌ يضيقُ به المكانُ ـ وقيل إسماعيلُ جاءَ وقيل غابَ ـ
ضيوفُهُ ملأوا المكان

مِلَلٌ وآلهةٌ يؤاكِلُ بعضها
بَعضاً، ويأكلُ بعضها
بَعْضاً، ـ ويختلط الكلامْ

ـ حشدٌ يوزع وَرْدَهُ
فرحاً بمقصلةٍ تُقامْ.
ـ الأطلسُ العربيّ جِلْدُ نعامةٍ غلبت نعامهْ
ـ لا غالبَ إلّاهُ/سَرْجُ حصانِه
ذهبٌ، وجبهتُهُ غمامَهْ.

ـ من أنتَ؟ من أميّهْ؟(٢٢)
ـ لا ، لستُ من أميّهْ.

ـ منْ أنتَ؟ هاشميٌ؟(٢٣)
ـ لا ، لست هاشمياً.

حَفْلٌ لاسماعيلَ (إسماعيلُ جاء وقيلَ غابَ) ضيوفهُ
مِلَلٌ وآلهةٌ يؤاكِل بعضُها
بَعضاً، ويأكل بعْضُها
بعضاً، ـ وتمتزجُ الألوهةُ بالرَصاصْ
(أهُوَ الخلاصْ؟)(٢٤)

(٢٢) «وَهَى من أمية بنيانها
وهانَ على الله فقدانها...»
(٢٣) «بني هاشم، عودوا إلى نخلاتكمْ
فقد صار هذا التمرُ، صاعاً بدرهم
إذا قلتمُ: رهطُ النبيّ محمدٍ
فان النصارى رهطُ عيسى بن مريم»
(٢٤) هل كنت تسألُ عن نجوم قبيلتي؟
أفلتْ / أحبُ الآفلينَ ـ صدَقْتَ: أجنحة الدجاج ملائكٌ
والشمسُ قشرة برتقالهْ

أدعوكَ إسماعيلُ، خَمرةُ عَهْدِنا
سُكِبَت، ومائدةُ الغَسَقْ
في زَهوِها ـ
وأنا وأنتَ السّاقيانِ، وحولنا
حَشَراتُ أسلحةٍ تطوّقنا وتفقسُ بيضَها. . .
أدعوكَ إسماعيلُ، أفتتح النهايةَ: لست نَسْلَكْ(٢٥).

أعطيتُ قبلكَ جَنّتي حوّاءهَا
ورأيتُ وَجْهَ الله قَبْلَكْ.

أدعوكَ إسماعيلُ، أنهي ما بَدأتَ ـ أقيم في بَهْو العُصـورِ وَليمتي.
أَجْتَثُّ نفسيَ منكَ/ (آخِرُ نَوْرَسٍ

صدَقْتُ: جنسيَ طحلبٌ،
والله آله.
(٢٥) أجتثُّ نفسي منه، ـ أهلي:
قتّالُ آلهة،
وخالقُ غبطةٍ،
ومحرِّرٌ. . .

قرأ الشواطىءَ جالِسٌ
قُرْبي، وأوّلُ نَوْرسٍ
كَتَبَ الشواطىءَ جالِسٌ
قُرْبي) وأفْتَتِحُ البدايةَ، خالِقاً
لَعِباً كوجه الله يسبحُ في مياهِ الأبجديهْ:
في كلّ شيءٍ سِرّهُ
يجري، وليس لمثلِهِ
أن ينتشي بجذورِهِ
أو أن تحاصرهُ هُويهْ(٢٦).

من أوّلٍ، أتعلّمُ الكلماتِ، أُتقِنُ سِرَّها
وأقولُ: جذري
لعبٌ، وتيهُ مباهجٍ، -
كشْفٌ يُدشِّنُ كلّ ضوْءٍ
شغفاً، ويفترش الترابَ كمثلِ نبعٍ(٢٧)،

(٢٦) ماذا؟ كأن الماء ذاكرتي / أأسكنُ قلبَ نبعٍ؟
(٢٧) أعطيتُ نفسيَ صبوتي، ونسيتُ نفسي.

وأقول: أسلافي هَوىً
عشقَ الفضاء، وصاغَ من جسدِ الهواءِ شراعَهُ
والفجرُ يُلبسني مباذلهُ، وكلّ سحابةٍ
وَطنٌ لحبّي(٢٨)،

وأقولُ: حبّي
من أولٍ، يتعلّمُ الكلماتِ، يُتْقنُ سحرها
ويشاركُ العنب النبيلَ بمكرهِ؛(٢٩)

أيامه الشّجَرُ الملقّحُ بالفصولِ ـ يَداهُ فجرٌ
لافجر إسماعيلَ، بل هذا الدم المسكوب في كأسِ الكلامْ
لا الأمس، بل هذا الحُطامْ:

(٢٨) خبأْتَ حزني في جدارٍ ـ في بيتنا المهدومِ / نجمٌ
ساهرٌ يحنو عليه، ـ
يأسي قناعٌ
غضبي غزالٌ نافرٌ يرعاهُ طفلٌ.
(٢٩) ماذا يقول مُقيَّدٌ
يمحو النبيُّ كتابهُ
يمحو الكتابُ لسانَهُ؟

جُثثٌ ـ أخٌ وأخٌ ، حدائقُ عاشقينَ وأصدقاءْ
جُثَثٌ ـ مواعيدٌ، تلهّفُ غائبٍ
وحنينُ منتظرٍ، وصبوةُ حالمٍ
جُثثٌ ـ مَوائدُ، نُقْلُها كُتبٌ وخمرتها السماءْ.
جُثَثٌ ـ وتعجزُ أن تُميِّزَ: أيُّها
سيفٌ يَجُزُّ، وأيُّها
عُنقٌ ؟يُجَزُّ، وأيُّها . . .
جُثَثٌ ـ وتخرج من بُخارِ سديمها
سَوَرٌ تقولُ: القتلُ مُبتدَأٌ ، ويُخلطُ قاتِلٌ بقتيلِهِ
ويصيحُ بيتٌ: إنني قبرٌ ويصرخ شاعِرٌ:
شعبي فضاءُ دمٍ ، ويلتبسُ الفضاءُ على الفضاءْ.

مُتدثّراً بدمي ، يسيرُ ـ تقودهُ
حُمَمٌ ، ويَهديهِ حطامٌ :

أتقدّمُ الكلمات نحو سَريرها
لأرى بحيرةَ موْتِها ، ـ

قالَ الغسَقْ
عُنُقُ الرّماد مَدَدْتُهُ[٣٠]

جسراً لكلّ نبوءة ، ـ
قالَ الغسقْ

(٣٠) مَزَج الرمادُ ثيابهُ
بالريح /نام : وسادُهُ
أفقٌ وشمسٌ .

جَسَدُ المدينة قاحِلٌ
لَقّحتهُ، وجلَوْتُ للنسغِ المحرِّر جنسهُ، ـ
قال الغَسَقْ
لو أنّ لي بيتاً لكنتُ دعوتكم
ولقلتُ: فيه تؤمنون وتكفرونْ
وتجدّفونَ وتسخرونَ وتحلمونْ
وَلَكنتُ أرحبَ ساحةٍ لجنونكمْ
ولَكنتُ أصدقَ صاحبٍ، ـ
قال الغسقْ.

. . . / وأنا الذي نبذتْهُ كلّ قبيلةٍ(٣١)
ليكونَ لي أنْ أسمع الصوتَ الذي همسَتهُ حنجرة الغسقْ،
أعطيتُ للحقل الصديق شقائقي

(٣١) قاومتَ، ـ حتى الضّوء مات/ ألستَ نبضاً؟
في كل شيءٍ نبضةٌ ماتتْ/ أتنهضُ؟ كيف أعطي
لخطاي دربكَ؟ كيف أبدأ؟ أين أمضي؟

أعطيت أوراق الفصول محابري
أعطيتُ ذاكرتي لكل ثنيةٍ
في ذلك الجسد الذي سمّيتهُ
وطناً، وعاش بلا وطنْ،

وَلبستُ شعري كالكفنْ(٣٢)

أعطيتُ قرميدَ الثلوج قصائدي
دفئاً له،
أعطيتُ شيخ الريح عُكازاً توارَثهُ أبي عن جدّهِ
أعطيتُ أهداب الرّياح نوافذي
أعطيتُ كلَّ مهيَّمٍ شغفي وناري،
أعطيتُ هاجَرَ كلَّ ما يُعطيه إبْنَ
أعطيتُ إسماعيلَ أجملَ ما رأتْهُ طُفولتي،
ليكونَ لي أن اسمعَ الصّوتَ الذي هَمَسَتْهُ حنجرةُ الغَسَقْ.

(٣٢) جلسَ النهار إلى خواني مرهقاً
وبكى / فرحتُ، ـ رأيته يبكي معي.

غَسَقٌ وإسماعيلُ يدخلُ في الغَسَقْ
إملاءَ صَحْراءٍ، ورأسكَ ـ طائحاً، إيقاعُها[٣٣].

غَسَقٌ وتبتهجُ الطبيعةُ بالغسَقْ
ودمي نشيدٌ للغسَقْ
صفصافةٌ فَرَشَتْ جدائلها لتحتضنَ الغسَقْ
ماءٌ يفارقُ نبعَهُ ليرى الغسَقْ
في كلِّ شيءٍ زهرةٌ
تحنو على كتفِ الغسَق؛[٣٤]

غَسَقٌ وترتطم السماءُ بخطْوِنا، ـ
هُوَذا أصافحُ خالقاً
جَمدت أصابعه، وأُعطي

(٣٣) ما زال جبرُ الكهف يرسمُ فأسهُ
في قلب عصري: لست منه، أنا نقيضٌ:
حفّارُ أحلامٍ، ـ غيومٌ
وعدت ببرقٍ.
(٣٤) أين اتجهتُ، أرى قلوباً
ثقبت، ـ أرى رأساً تدلّى . . .

لُغتي لحبر الموت، ـ أتْبعُ هذه الكُـرةَ الخفيفـةَ
من خيوط العنكبوتْ
وأقولُ: أرضي عاشقٌ ميْتٌ وعاشِقةٌ تموت.
هــوَذا ، سـأرسم كـوكبَ الغَسَق المضيءِ على يـديَّ،
لكي أحيِّيَ وردةً

ذَبُلَتْ، وكنتُ قطفتُها
من شُرْفةِ الزمنِ الذي آخيته،
ولكي أُلامسَ طينها بكراً، يردّ الى العناصر سحرها

ويقول لِلُّغةِ اتبعيني
هذا هوَ الغَسَقُ الجميلُ قتيلُهُ يَرِثُ القتيلْ
هذا هُوَ الغَسَقُ الدليلْ(٣٥).

(٣٥) كتف النهار جريحةٌ، والليل يعرُجُ/حيْنا
قبرٌ، ـ سأقطف وردة وأضمها لرسائلي:
بيروت ناقة هارب، والموت هودجها/رأيت جرائماً
ترعى، رأيتُ خِرافها
ورأيتُ رقص معادن...
وأرى: الخيامُ هي الخيامُ، أرى: الطّلولُ هي الطلولْ
طُرُقٌ مُزنّرةٌ بعصف سديمها
والنارُ تعرف ما أقولْ...

مَتَدثَّراً بدمي ، أجيءُ ـ يقودُني
حُلمٌ ويهديني بريقٌ ، ـ
هَيَأتُ بيتيَ لابنِ رُشْدٍ
وأبي نواسٍ ، والرَّضيْ
وكتبتُ للطائيِّ أن يأتي ، وقلتُ لذي القروح : أبوالعلاء أتىَ ،
وأحمدُ ، وابنُ خُلدونٍ ، ـ

سنعلنُ آيةَ الأحشاءِ ، وسوسَةَ السّديم الأَوّليْ
ونفكّكُ اللغةَ الدفينةْ
في غابة الأشياءِ ، ـ نقرأ صخرةً
غَمُضَتْ ، ونسمع ما تُوَشوِشُ ياسمينه
ويدورُ في خَلَدِ الحقولْ :
الحبُّ زهرةُ رغبةٍ
والشعر فاتحة العُقولْ (٣٦) .

(٣٦) قِردٌ على حجر التنبؤ جالسٌ
يرنو اليَّ كأنني قديسةٌ :
أأقولُ اسماعيلُ ناريَ ، هاجرُ
بيتي ، وابراهيمُ بردٌ؟
ماذا أقول له؟ أأزعمُ أنني

٠٠/ وأنا الذي نبذتهُ كلّ قبيلةٍ
أدعوكَ، اسماعيلُ، أكْمِلُ ما بدأتُ/أُقيمُ في بهْو العصور
وليمتي

لم يبقَ من جسد المكان سوى التراب/حضنتهُ
طيناً، وضرْبةَ خالقٍ ـ
لعِباً يذوّب في دَمي تِرْياقَهُ، ـ

ببـــراءةِ اللّعِبِ التَبسْتُ، ـ رأيتُ في الحجـــر الجنــاحَ،
رأيتُ جسمي وردةً
تملي كتابَ رحيقها، والكونُ حِبْرٌ
ببراءةِ اللعِبِ اتَّحدْتُ، وغُيِّرتْ
صُوَرُ الطبيعةِ ـ قلتُ لِلّعبِ اسْتَبِحْ جسدي وخُذني

ربٌ؟ واعلن جنّتي:
حواء تفاحٌ، وآدم شهوة
والموت مفتاحُ السماءِ؟
أأقول: لي قدمٌ هنا، ويدٌ هناك،
ولي خيول في الهواءِ؟

يَا شيخَ حبّي ، أيها البحرُ المنوَّرُ، أعطني
حضناً يشاركني جُموحي
لَكَ صورةٌ ـ أطْرافيَ ارتسَمَتْ على أطرافِها
وأنا وأنتَ مُضَرّجانِ بِعهدِنا(٣٧).

وأنا هوىً بطِرٌ يُحَصّنني ـ أنا حُلمي أخطُّ غيوبَهُ
صُوراً تُكاشفني
أنا جسَدي ، وللجسد ابتهالي
والحلمُ زهرُ موائدي
والحلمُ خبزيَ واحتفالي ،
فأرى كأنيَ طينةٌ
جُبِلت بغير غُبارها
وَيضمّني جسدي الى جسَدي ، ويسألني سؤالي .

وأرى كأنيّ

(٣٧) عهدٌ يُنوِّرُ صورة الزمن الجديدْ ، ـ
زمنٌ ـ هيامُ خالقٌ ، وبهاءُ عيدْ .

آخيتُ بُهلولاً ، وسُقْتُ إلى المياهِ قطيعَ نخْلٍ[٣٨]

(لو أنّ اسماعيل يُعْتِقُ نفسهُ من نفسه)

آخيتُ بهلولاً وسحْتُ، صَحبتُ سَرْخَسَ نشْوةٍ
ولبستُ صفْصافاً، وقلتُ الوردُ خيمةُ عاشقٍ
(لوْ أنّ اسماعيلَ يُعتِقُ نفسهُ من نفسه)

آخيتُ بهلولاً وكنتُ الجسر بين غوايةٍ وغوايةٍ
(لو أنّ اسماعيلَ يُعتِقُ نفسَه من نفسِه)

آخيتُ بهلولاً وأسكنتُ الخليقةَ في ردائي
وجَهرتُ: أَوْلى أن يكون الحقُّ معراجاً ورائي

آخيتُ بهلولاً لأدخلَ في الأفولْ
وأضمَّ آخِرَ زهرةٍ لتكون أوّلَ ما أقولْ[٣٩].

(٣٨) للنّخل اقواسٌ وليس له سِهامْ.
(٣٩) سأقول إسماعيل وادٍ من حَجَرْ
سأقول إسماعيل فَخّارٌ تَشقّق وانكسَرْ
سأقول إسماعيل صَنْعةُ صانعٍ
وأقول هاجَرَ لم تُهاجِرْ.

ما كان كانْ

حَضَرٌ وبدْوٌ ـ معجَمٌ لِخُرافةٍ

(جَنحَ الغرابُ الى البياضِ / فلانَةٌ

كتبتْ طفولتها رقيمَ هوىً وأرَّخَهُ فُلانْ

بيتاً لإسماعيلَ ـ حقلَ دمٍ) / أقولْ

أعطيتُ عَصْرِيَ للغُبارِ، دخلتُ في رَحِمِ الأفولْ

طيفاً لتاريخٍ يجيءُ، ـ أكاد أسمع خطوَهُ:

يا صورةً ستجيءُ، يا لغتي وحبي

إن كنتِ واحدةً، فباسمكِ ـ باسم هاجسكِ الكثير، أنا أنا، ـ

وأنا سوايَ (كأنّ اسماعيلَ يخلعُ نفسهُ من نفسهِ)

غَسَقٌ وتبتَهجُ الطبيعةُ بالغسقْ

ودمي نشيدٌ للغسقْ، ـ

بحْرٌ يموجُ إليَّ مُشْتَعِلاً يكرّر موجُهُ ـ

هذا هو الغسقُ الجميلُ ـ قتيلهُ يَرِثُ القتيلْ

هذا هوَ الغسَقُ الدّليلْ.

(بيروت / تموز ـ تشرين الأول ١٩٨٣)

الفهرست

الوقت ٥
صحراء، I ٢١
ضوء الشمعة ٣٥
صحراء، II ٦٧
أشخاص ٨٧
الأسود السيد ١٠١
رسائل ١١٣
فاصل من الغبار والورق ١١٩
طوفي، ايتها الكآبة ١٢٩
هذا ما كتبه محمد بن
عيسى الصيداني قبيل موته ١٤١
أغنيات ١٥٩
الاسم ١٨٣
حالات ١٨٧
الولد الراكض في الذاكرة ١٩٩
شطح ٢٠٥
اسماعيل ٢١١

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

حاضِناً سنبلةَ الوقت ورأسي برجُ نارٍ:
ما الدّمُ الضّارِبُ في الرّملِ، وما هذا الأفولُ؟
قُلْ لنا، يا لَهَبَ الحاضِرِ، ماذا سنقولُ؟

مِزَقُ التّارِيخِ في حنجرتي
وعلى وجهي أماراتُ الضّحيّه
ما أمَرَّ اللّغة الآن وما أضيقَ بابَ الأبجديّهْ.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت